مراجعات

ملحــق شهــري تصـدره وزارة الأوقــاف والشــؤون الدينيــة (العدد رقم: 88)

محرم 1444هـ - أغسطس 2022م

الصفحــة الأولــى...

هــلال الحجــري

لم يقتـصر تأثير الثقافـة العربيـة في الشـعر الإنجليـزي عـلى الشـعراء القدامـى، وإنمـا شـمل الشـعراء المعاصريـن ومنهـم الشـاعر والأكاديمـي البريطـاني دينيـس جوزيـف إنرايـت (1920-2002). تخـرج في كيمبريدج، وشـغل عددًا مـن المناصب الأكاديمية خـارج المملكـة المتحـدة: في مـصر وألمانيـا واليابـان وتايلانـد وسـنغافورة. تحـدَّث عـن تجربتـه الأكاديميـة والحياتيـة في هـذه الـدول في كتـاب مُثير للجـدل عنوانـه «مذكرات أسـتاذ متسـوّل»، صـدر عـام 1969. عـلى المسـتوى الشـعري، قدمـت تجاربـه في مـصر والـشرق الأقـصى مـادة للعديـد مـن قصائـده؛ حيـث يتحـد الشـعور بالانفصـال الثقـافي مـع التعاطـف البسـيط في تأملاتـه السـاخرة حـول السـلوك البـشري. ومـن ذلـك، قصيـدة لـه بعنوان «الموسـيقى العربيـة» نشرهـا في مجموعتـه الشـعرية الأولى (الضبـع الضاحـك وقصائد أخرى) سـنة 1953. والقصيـدة من تأملاته السـاخرة والعميقـة أثنـاء تدريسـه في جامعـة الإسـكندرية في مـصر خـلال الفـترة 1947-1950.

«الموسيقـى العربيـة»

ليستْ إلا ليلةً واحدةً دافئة، بين العديد من الليالي الدافئة:
ليست إلا أصواتا عزلاء وأياديَ عارية، وشارعا خاليا

تملؤه قُمامات الفقراء.

ثم، مِثْلَ التّرانيمِ الأولى، التي لم تُغَنَّ مِنْ قبل: وفي أرديةٍ قَذِرة،
تَجَلَّى النوبيون بعيونِهم اللامعةِ في الظلام،

هكذا ببساطةٍ بين سيارات الأُجْرة المُنطلِقة.

أصواتُهم نَقيّةٌ وبسيطةٌ تتأوّدُ وترتقي

قِمّةَ البلاغةِ البارعة: وأيديهم الصلبة

تُصفِّق وتَخْفِق عبر ذلك الصمت الحَرِج.

رِجالٌ أمّيّون فقراء،

لكنّهم وَحْدَهم في هذا العالم مازالوا يُغنّون مِثْلَ البَشَر.

لقد عسكر قَيْصرُ ذاتَ مَرّةٍ في هذا المكان: ثم تسابقت إليه
الأشباحُ القاسية،

من المُبشّرين والتُّجّار والآخرين، تَلْفَحُ وُجوهَهم الرمال، وتَسْخَرُ
منهم الرياح.

الآن، لا أحَدَ غيرُ شُرطيٍّ بَلَديٍّ شاحِب، يَجْثِمُ خَجُولا

بين تراماتٍ مجنونةٍ ورفاقٍ أكثر جنونا.

الأغنيةُ ما زالت تُحلّق عاصفةً وهائلةً: تاريخُهم،
وجرائدُهم اليومية، وكنائسُهم، وأسَرّةُ أعراسِهم، وقبورُهم
الضيّقة، جميعُها
بين أياديهم العارية، تحملها أصواتٌ منتصف الليل.

hilalalhajri@hotmail.com

هنا وهناك: مواقع الفلسفة
ستانلي كافل

القرآن الكريم وتأويله
ماسيمو كامبانيني

التفكير التكنولوجي: أفكار وأسرار وادي السيليكون
أدريان دوب

الفولغا
جانيت هارتلي

السلاح الاقتصادي: صعود العقوبات كأداة للحرب الحديثة
نيكولاس مولادر

انتهاك حرمة المحاكم
سباستيان بول

المراجع الألمانية المكتوبة عن القرآن: بيوغرافيا وبيبليوغرافيا
سردار أصلان

أنتيكامينوس
ألكسندر دوغين

ألمانيا: أمّة في وقتها قبل القومية وأثناءها وبعدها 1500-2000
هيلموت والسر سميث

القصة من الداخل لتطعيم أكسفورد-أسترازينيكا..
سارة جيلبرت وكاثرين جرين

الحرب الأوكرانية: الجانب المخفي من الأوراق
غبريال بانون

إصــدارات عــالميــة جـديـدة

الصفحــة الأخيــرة

هنا وهناك: مواقع الفلسفة

ستانلي كافل

محمد الشيخ *

ثمة من الفلاسفة من كانوا عازفين موسيقيين ما اكتفوا هم بالقول في الموسيقى وإنما زاولوها المزاولة. وذلك شأن الفارابي وابن باجه، من فلاسفة الإسلام، والذين كانا عازفي قانون وعود. وشأن نيتشه ويانكلفيتش، من فلاسفة الغرب، والذين كانا عازفي بيانو. ومن الفلاسفة المعاصرين ممن لحق بركب ذاكين وبَزَّ هاذين الفيلسوف الأمريكي الكبير ستانلي كافل (1926 - 2018) الذي أدركته حرفة الفلسفة وحرفة الموسيقى (العزف على البيانو) معا، حتى وإن ضامت الحرفة الأولى الحرفة الثانية.

وقد صدر كتابه هذا (٢٠٢٢) الذي نقدمه هذا الشهر بعد أن توفي صاحبه (٢٠١٨)، وبعد أن كان أخرج إلى الناس سيرته الذاتية («الطفيف مما أعرفه» (٢٠١٠)). وكان يعتزم إصداره منذ ما ينيف عن عقدين من الزمان، وكان استقر عزمه على أن يسميه «هنا وهناك: مواقع الفلسفة»، وقد صمم على أن يضمّنه محاضراته ومقالاته الغير المنشورة، والتي تمتد على أزيد من عقد من الزمن. لكن، حدث أن تركه «هوامل» مسيبة تحتاج إلى «شوامل» جامعة. وفي عنوان كتابه هذا . هنا وهناك. مواقع الفلسفة . ترمز «هنا» . الأمر القريب . إلى ما نحياه من عوادي الأمور، ونسعى أن نفكر فيه تفكيرا فلسفيا. بينما تشير«هناك» . الشأن البعيد . إلى المكان النائي الذي يسافر إليه فكرنا الفلسفي. وإنما الفلسفة أشبه شيء تكون، عنده، بنهر ينتحيه تفكيرنا الفلسفي ويغيِّر به وجهته: ما بين الضفة القريبة (هنا) والضفة البعيدة (هناك).

وهكذا، تنطلق جوامع المقالات هذه من مقدمة مفادها أن التفكير الفلسفي إنما هو سفر دائم . رواحا وذهابا . بين ضفتين: «ضفة الواقع» و«ضفة المأمول». والحال عند صاحبه أن الفلسفة في سفرها هذا تلتزم بهاتين الضرورتين معا: ضرورة «الهنا»، وضرورة «الهناك». والذي عند ستانلي كافل أن حقيقة التفكير الفلسفي تكمن في أنه «محرّك» لسائر التفكير البشري. ذلك أن من شأن الفلسفة أن تنطلق من حيثيات مخصوصة، وأن تستعمل كلمات خاصة، وأن تتوسل مفاهيم توجد طوع اليد في لحظة معينة؛ وذلك بحكم أن الفلسفة متجذرة، لا محالة، في ما يسميه ستانلي كافل «الشأن العادي الذي نوجد فيه ونحيا بوفقه». على أن «وجهة النظر هذه»، التي تنطلق منها الفلسفة، من شأنها أن تتعارض مع «فورة الإلهام وسورته» التي تستبد بنا . نحن معشر البشر . وتدعونا إلى إدراك الأشياء في كنهها . الهناك/الماينبغيات . لا كما تبدو لنا في لحظتها . الهنا/الماجريات. والحال أن الفلسفة تقتضي العزم على الإبحار، إبحارا بلا نهاية، بين هاتين الضفتين الإبحار المغامِر. وقد كانت للرجل مقدرة تقضي بالعجب على استجماع شرائط الوجود البشري التي نخضع لها نحن معشر البشر والتي نشكلها لأنفسنا. وهي شرائط وأوضاع ظاهرة للعيان، لكننا معشر البشر نتفادى أن ننظر فيها أو أن ننتبه إليها وننبه عليها. والحال أن لا إبحار من دون انتقاء أدوات الإبحار. وشأنه شأن عازف البيانو الذي كانه، ينتقي ستانلي كافل من أعمال الآخرين التي يبحر بها ما أسره وأخذ بمجامع عقله وقلبه داخل ميدان الفلسفة أو خارجها سواء بسواء. ومن الفلاسفة الذين استأثروا بعنايته فيلسوف اللغة الإنجليزي جون أوستين، وفيلسوف الصمت النمساوي فيتجنشتاين . وكلاهما اهتم بالكلمات وباللغة العادية وبصلتهما بالعالم المعيش . وفيلسوف الوئام الأمريكي رالف إمرسون، وفيلسوف البساطة الطوعية الأمريكي ديفيد تورو. ومن غير الفلاسفة تراجيديا شكسبير، وكوميديا هوليود الكلاسيكية وميلودراماتها، وفن الأوبرا، والروائية الإنجليزية جين أوستن، والقصاص الأمريكي إدجار ألان بو، و الكاتب والشاعر والمسرحي الإيرلندي صامويل بيكيت، وغيرهم كثير.

وقد باين ستانلي كافل سائر فلاسفة عصره وأهل حرفة الفكر في زمنه من حيث أنه لم يحصر نفسه في مباحث فلسفية بعينها، لا ولا سعى إلى بناء نسق فلسفي مغلق، أو نشط إلى تبني مذاهب أو مناهج فلسفية تمامية، وإنما كانت الفلسفة عنده دوما انفتاح أفق، وما كان الفيلسوف في حسبانه من بناة الأنساق. وقد شعر على وجه الدوام بالغربة في أوساط الفلاسفة المحترفين، ولذلك لم يكن يركز على نزعات الفلسفة الاحترافية وإنما على ظواهر مخصوصة مهما كان مصدرها، بناء على فكرته في أن ما من موضوع إلا وهو يصلح أن يكون موضوعا فلسفيا (مثلا أفلام ١٩٣٠ و١٩٤٠، حطب فيتجنشتاين، زيارة الأمريكي إمرسون إلى حديقة النباتات بباريس، عناية والتر بنيامين بالأروقة الباريسية، جهورية صوت النساء في الأوبرا ...) بما يشي عن أنه كان يرفض أن يفهم الفلسفة على أنها مشروع بناء نسق. على أن هذا لا يعني أن عمله يفتقد إلى الصرامة الفلسفية المطلوبة أو يكثر فيه «الهراء». وإنما كان الرجل على شاكلة شيخه نيتشه إذ ما كان هذا ليخفي، أبدا، تبرمه من أن تُقرأ كتبه بما يفيد انعدام التنسيق، وكان دائم التطلع إلى الزمن الذي يقرأ فيه القراء كتاب «إرادة القوة» بذات الصرامة المنهجية والنسقية التي يقرأ قراء الفلسفة بها كتابا كلاسيكيا شأن كتب أرسطو مثلا . ثم إن الفلسفة عند ستانلي كافل، شأنها في ذلك شأنها عند ابن سينا في كتاب «المحادثات»، فكر يتشكل عبر سنين ويتقوم عبر نقاش موصول مع طائفة عريضة من الأخلاء والزملاء والطلبة. وفضلا عن هذا وذاك، مايز الرجل نفسه عن غيره بانفتاحه على جمهور واسع. إذ ما عمل على محادثة الفلاسفة وحدهم بالمفاهيم الفلسفية حصرا، وإنما حاضر أمام جمهور مختلف في مواضيع متنوعة بروح متباينة. وهو الشيء الذي يظهر أثره جليا في هذا الكتاب. وعلى الرغم من تصريح ستانلي كافل في مناسبات عدة . على عادة «أهل النصوص» من الفلاسفة لا «أهل الإشكالات» . بأن الشأن في الفلسفة أنها «نصوص لا إشكالات»، فإن عمله ما كان اعتكاف الزهاد على النصوص تخريجا وتفسيرا وتأويلا، وإنما كان شأنه التفكير في النصوص والتفكر فيها على طريقة المحللين النفسانيين لا على سبيل المفسرين والشراح والمؤولين ... وذلك سعيا منه إلى إلهام قرائه فكرة أن يفكروا بأنفسهم لا بغيرهم، وأن التفكير «فريضة فرد» لا «فريضة كفاية»، وأن يحكموا على ما يقوله بالقياس إلى أنفسهم وإلى خبراتهم وإلى جهدهم، شعاره في كل ذلك: «يا هذا، فكر بنفسك» ... وفي هذا رد على من ادعوا أن الفلسفة تحتاج إلى خبرة طويلة وإلى احتراف تام وإلى تفرغ كامل وإلى دربة طويلة وإلى دراسة عميقة وملازمة مديدة لنصوص الفلاسفة. وكأني بالرجل أُلهم هذه الفكرة من لدن شيخه فيتجنشتاين الذي طوال عمره ما قرأ من تآليف الفلسفة اللهم إلا النزر اليسير، وبالبدل من ذلك كان يفضل الاطلاع على

كتب الرسوم. شأن كتاب الأطفال أليس في بلاد العجائب. يستخرج منه إشكالاته الفلسفية العظيمة.

وعلى الرغم من أن مجمل المقالات التي تم تجميعها في هذا الكتاب «هوامل» اقترنت بمناسبات مخصوصة استجابة إلى دعوات موجهة، وعلى الرغم من أن بعض الموضوعات منها من المواضيع المطروقة في كتابات ستانلي كافل السابقة (وبعضها غير مطروقة شأن مقالته الدائرة على والتر بنيامين، وتلك التي أدارها على فولكنر ووالاس ستيفنس)، فإن الجامع بين هذه المقالات. والتي تشكل شواملها لهواملها. إنما هي «تلك الصلة الجوانية القائمة بين الفلسفة والمواقع التي غالبا ما لم يتم تصييرها موضوعا للتفكير في الفلسفة»؛ وذلك بناء على مقدمته التي يذهب فيها إلى أن الشأن في الكلمات أن تحيا في مواقع خطاب معيشة وعينية. وهو ما تبرزه هذه المقالات. وظروف ما نقوله، وحيثيات ما ندلي به، والمقول إليه، وجهة القول، وموقع القائل؛ وذلك كله يهم قدر ما يهم معنى أقوالنا. ومن ثمة كان عنوان الكتاب: «هنا وهناك» الذي ينبه على فكرة «المواقع» هذه. على أن تباين المواقع ليس يعني تشذر الأقوال شذر مذر. إذ ثمة «هوامل»، بلغة أبي حيان التوحيدي، كأنها إبل مسيبة، و«شوامل» تجمعها الجمع دون أن تسقط في النسقية المغلقة. وما كان معيار التنسيق «صرحا نظريا» يبنى، وإنما هو «جملة تمارين» تجرى؛ بحيث تستفز القارئ استفزازا وتستنهض فيه الهمة إلى التفكير معها وضدها في آن ...

ومن تلك التمارين الفلسفية التي يلح عليها الرجل في جامعه هذا أن قضية شأن وجود العالم الخارجي خارج أذهاننا ما كانت هي بالأولى قضية معرفية مجردة. مسألة ريبية ووثوقية، وقضية شكية وإثباتية. وإنما هي بالأحرى مسألة مأساوية: مأساة الإخفاق في التعرف على ما يجول في عقول الآخرين؛ ومن ثمة سوء الفهم الأبدي بين بني البشر. وهي مأساة جديرة بمآسي شكسبير. ومن هنا أهمية استخدام شكسبير في استغوار ما يجول في خاطر الغير وبيان فشلنا في ذاك الأمر؛ وذلك على نحو ما تشهد عليه أيضا بعض الأفلام، وما تنم عنه أعمال إمرسون وتورو الفلسفية ... والحدود هنا تغيم بين الأدب والفن والفلسفة، وما كان شأن التعرف على ما يجول في خلد الأغيار بالمسألة الفلسفية المجردة، وإنما هي مسألة معيشة محققة. ومن الحياة بمعية الأغيار، وتحليلها تحليلا معرفيا، إلى السلوك اتجاه الأغيار وتحليله تحليلا أخلاقيا، ينتقل بنا ستانلي كافل إلى النظر الفلسفي في مسألة «الكمال الخلقي» كما ورد عند إمرسون. ومقتضاه أن تصير ما أنت إياه، أو بعبارة نيتشه «صر ما أنت كائنه» أو «أحب مصيرك».

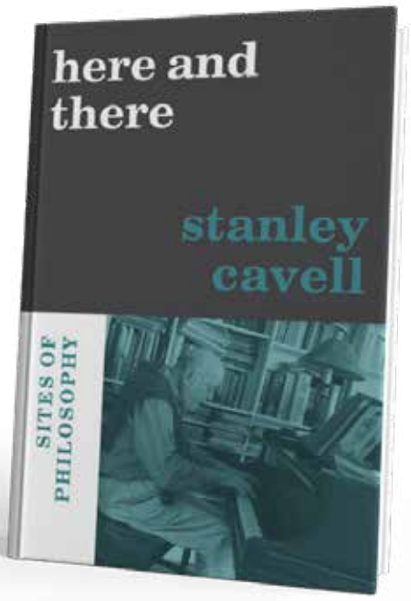

وهكذا، ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

باب افتتاحي يسميه صاحبه «مغادرات» حيث يضم أطول النصوص نَفَسا. وقد ضمنه اهتماماته المستجدة والتي كان يأمل أن تلهم بحوثه المقبلة لولا أن فاجأه الموت. وتشهد هذه المقالات، في مجملها، على دين ستانلي كافل لكل من فيتجنشتاين وأوستين. وتنضوي على ثلاث مقالات كبرى: «الزمن بعد الزمن». وهو بحث يعكس اشتغالاته بقضايا البيئة وفق عنوان مفارق «فلسفة اليوم بعد الغد»؛ وذلك على أساس أن الفلسفة هي بالأجدر تفكير للمستقبل. أما مقالة «العالم بحسبانه أشياء» فتتناول الفن باعتباره «تجميعا»؛ علما أن فكرة «التجميع» هذه تلعب دورا كبيرا في فلسفة الرجل؛ إذ لطالما تحدث عن فلسفته بحسبانها عملا تجميعيا بالمعنى المدحي لا القدحي. ثم يأتي مقال ثالث عبارة عن تأمل في النظرية الأدبية ومناقشة لتفكيكية دريدا، وهو يتحفظ على عملية التفكيك باعتبارها تقع في ما سعت إلى الفرار منه أصلا: النزعة الوضعية.

وباب ثان أطلق عليه اسم «تعيينات». وفيها جماع اهتماماته بعد تقاعده، والتي آب فيها إلى المواضيع التي لطالما استأثرت باهتمامه وطوّحت به عنها مطاوح. وقد تمثل عمله فيها على تعميق نقط كان قد اكتفى بالإلماع إليها في أعماله السابقة، وما أسعفه الوقت لتعميق النظر فيها: شأن النظر في فكر والتر بنيامين الذي لطالما انجذب إليه لكن ما حاوره الحوار التفصيلي؛ لا سيما في أمر الأدب الذي يجادل في الفلسفة، وفي شأن الكتابة الأدبية المنزع التي تشغب على الفلسفة الرسمية. وقس على ذلك جانب صلة التحليل النفسي بالفلسفة الذي ما كان قد تفرغ إليها التفرغ. وفي هذه المقالات ينهض بتحليل الصلة بين التحليل النفسي وفلسفة اللغة العادية باعتبار أن كلاهما سعي إلى استعادة ذواتنا الأصلية. ولئن هو كان «خيلاء الفلسفة يتمثل في إظهار أنني أقتدر على أن أتكلم كونيا نيابة عن أي إنسان إنسان»، فإن إفضاء التحليل النفسي يكمن في إظهار المبدأ المتواضع التالي: «أنا لا أقدر حتى على أن أستوفي الحديث عن نفسي الإستيفاء أكمله». وهكذا، فإنه أمام خيلاء بعض الفلاسفة يفضل ستانلي كافل أن يكون وريث تواضع فرويد.

وفي الباب الثالث الموسوم باسم «الموسيقى» يذكرنا في تقديمه أن الموسيقى وجدت من بين إحدى أقدم ممارساته الثقافية، شأن تهجي الكلمات، لكنه لطالما تحاشى الخوض في أمرها، اللهم إلا في استثناءات فردية. على أنه يقر بأنه «كان عازما على أن تكون الموسيقى ضامنة خبزه اليومي وشغل حياته»، لكن أزمة روحية وفكرية عصفت به أدت إلى تغيير مساره نحو العناية بالفلسفة. وفي هذا الكتاب جمع عشرة فصول قصار في الموسيقى: الأوبرا وموسيقى شونبرغ وبتهوفن وماهلر. وقد تنبه إلى أن ما كان نشده من الفلسفة إنما هو ما كان سعى إليه في الموسيقى؛ شعاره في ذلك قول فيتجنشتاين: «إن فهم جملة لغوية لأشبه شيء يكون بفهم موضوع موسيقي، وذلك أكثر مما قد يخيل إلى المرء». والحال أن قراءة الفلسفة أمر أشبه ما يكون بلعب الموسيقى، تقتضي أذنا صاغية ذائقة. ومن العجب أن فصوله المنتزعة في الموسيقى لم تضم أسماء موسيقاريين فحسب، وإنما ضمت أسماء مفكرين وأدباء نظير فرويد وكافكا وفيتجنشتاين وأدورنو وآرندت ... على أن الجامع بينهم اهتداؤهم إلى أن شأن فهم الموسيقى، كشأن فهم الفلسفة، يحتاج إلى التخلص من سلاسل كهف أفلاطون وخلع قيوده.

أخيرا، أفضل ما ختم به ستانلي كافل جوامع تفكراته الفلسفية هذه كان هو ما خاطب به طلبته بمناسبة تقاعده من قوله بعبارة فرنسية «أتمنى لكم سفرا سعيدا». وتلك كانت كلمته الأخيرة.

عنوان الكتاب:هنا وهناك
مواقع الفلسفة
اسم المؤلف:ستانلي كافل
سنة الإصدار:2022
دار النشر :مطابع جامعة هارفرد
عدد الصفحات: 328

* أكاديمي مغربي

القرآن الكريم وتأويله

ماسيمو كامبانيني

عزالدين عناية *

يندرج كتاب الأستاذ الجامعي الإيطالي ماسيمو كامبانيني ضمن مباحث علوم القرآن، وفق تصنيفات العلوم الإسلامية، في حين في الغرب فهو يُدرج ضمن مباحث علم الإسلاميات وهرمينوطيقا النصوص المقدسة. وهو نصّ يُعيد قراءة آليات تأويل النصّ الديني الإسلامي داخل خصوصياته الحضارية، وضمن أبعاده العقدية والتشريعية. والمؤلَّف في جوهره وفي مضامينه ليس تأويلاً للنصّ القرآني، ولا إضافة لقراءة جديدة جنب التأويلات المتعددة التي تطفح بها علوم القرآن، بل هو بحثٌ واكتشاف لأدوات وآليات تأويل القرآن الكريم، كما انبنت ضمن مسار الفكر الإسلامي وتعاطيه مع نصّه المقدس. فهناك مدارس متعددة قاربت الذكر الحكيم: لغوية وصوفية وفقهية وعقدية وسياسية، انبنت عليها جملة من التصورات والمفاهيم والأحكام باتت تميز العقل الإسلامي. ومن هنا فلكلّ نص ديني إطارُ فهمٍ وتفسير يتغايران من دين إلى آخر، ومن واقع إلى غيره، والتأويل الإسلامي له خصوصياته ومناهجه وأدواته.

ومن هذا الباب، فلئن يشترك النص القرآني مع نصوص مُقدّسة أخرى في معالجة بعض الإشكاليات الدنيوية والأخروية، فإنّه يظلّ مُتميزا ببنيته العقدية، وبفلسفة تأويله التي قامت حوله والتي تولدت عنه في الآن نفسه، ذلك ما يبيّنه مؤلف الكتاب الأستاذ الراحل ماسيمو كامبانيني. ينطلق صاحب الكتاب من مسائل تَشَكُّل النص القرآني، رحلته من الشفوي إلى المدوَّن، ثم في مستوى ثانٍ بنيته وهيكلته وتفرعاته، كما التأمت تاريخيا وواقعيا، التي من خلالها يتناول مواضيعه وإشكالياته التي تلخّصت عبر سوره وعبر وحدة بنيته الجامعة. كل ذلك من أجل توفير إطار معرفي ومفاهيمي لمسألة التأويل التي يتركز بشأنها موضوع الكتاب الرئيس. وفي مساره المقارب لمسألة التأويل يتعرّض المؤلف كامبانيني إلى مسألتي التفسير والتأويل في السياق الإسلامي، وإلى مسألة الناسخ والمنسوخ، وإلى أول ما نزل وآخر ما نزل، وإلى المُطلق والمُقيد، وإلى المكي والمدني، وما شابهها من القضايا التي أُشبعت بحثا في الدراسات القرآنية، كالقراءات المعاصرة للقرآن والتفسيرات الإسلاموية للنص القرآني، على غرار تفسير «في ظلال القرآن» للراحل سيد قطب.

يَعتبر ماسيمو كامبانيني أنّ النص القرآني، في تأويله القديم أو في فهمه الحديث، قد لازمه خيط ناسج في تأويله، بين القدماء والمحدثين، ارتهن بالأساس إلى أدوات التأويل التي يوظّفها العقل الديني الإسلامي. فالتأويل القرآني هو الأداة التي تُبقي النص القرآني مسايرا للتاريخ وداخل التاريخ. بَيْد أنّه جراء الهاجس السياسي الذي يخيّم على المسلمين اليوم، فإنّ التأويل السياسي يبدو غالبا ومهيمنا على العقل الديني الإسلامي في وعي مضامين القرآن. لكن أمام تغوّل الرؤية السياسية الحاضرة للقرآن، تلوح، وفق كامبانيني، منعطفات مستجدة في التأويل على غرار ما دشنه محمد أركون ونصر حامد أبو زيد، تتمثّل في إعادة قراءة القرآن الكريم وفق نظرة تاريخانية نقدية. ونشير بالمناسبة إلى أنّ ماسيمو كامبانيني هو من بين ثلة من الباحثين الإيطاليين ممن تخصّصوا في دراسة النص الديني الإسلامي تفسيرا وتأويلا، إلى جانب الأستاذ والمؤرخ فرانكو كارديني.

ما الشيء الذي يميز التأويل القديم عن التأويل الحديث للنص القرآني بحسب كامبانيني؟ في تلمّسه للإجابة عن هذا السؤال يَعتبر كامبانيني أنّ التأويل الديني لدى المسلمين لنصّ القرآن الكريم لئن يعتمد آليات متشابهة، تُوظَّف فيها اللغة والأدوات المعهودة في التفسير، فإنّ الواقع -وفق منظوره- يُنتج مساراته المستحدَثة في التأويل. تلك المسارات هي التي تجعل التأويل ثريا ومتنوعا ويتمايز فيه القديم عن الحديث، وإن بدا متشابها في الآليات. وهي بالفعل تلك المسارات التي تجعل النص القرآني نصّا متعدد التأويلات، وليس أحادي التأويل كما تسعى بعض التوجهات الدغمائية. فالتأويل هو مسعى للانسجام مع التاريخ، وهو مُحاولة لتنزيل النص في الواقع المتحرك، ضمن انفتاح على مسارات متعددة ترفض الانغلاق داخل رؤية جامدة. وبالتالي فالتأويل من منظور كامبانيني هو محاولة لربط المفارق بالعيني، والمقدس بالدنيوي. هذا الجدل يصنعه الإنسان في تطلع وحرص على البقاء داخل التاريخ. فالكائن المُتديّن وفق كامبانيني في جدل دائم مع واقعه ومع نصه القداسي، يبحث عن اتزان في فضائه التاريخي، ويطمح لاستلهام المقول المقدس وفي الآن نفسه يسعى لمسايرة واقعه.

لقد تركز جوهر الكتاب في مسألة دقيقة بشأن التعاطي مع القرآن الكريم، ألا وهي مسألة تأويل النص الديني، وأُقدّر أنّ صاحبه أحاط بقضايا تلك المسألة، وإن تعاطى مع الموضوع من خارج الدائرة الإيمانية الإسلامية. ولو نظرنا إلى كتاب كامبانيني ضمن الإطار العام لتطور مبحث الإسلاميات في إيطاليا، نلاحظ ميزته الريادية في الثقافة الإيطالية لكونه يقطع مع سيل من المنشورات السطحية تميزت بالإسفاف والأحكام المسبَقة مع النص القرآني. وعلى صغر حجم الكتاب (١٦٠ صفحة من القطع الصغير) فهو يلخّص مسألة التأويل في العقل الديني الإسلامي بكل وضوح وإيجاز دون إخلال. فمسارات التأويل هي مسارات الإدراك والإلمام التي يسير فيها العقل الديني والتي يحاول من خلالها الإحاطة بالنص والتعاطي مع واقعه. فليس التأويل منفصلا عن واقعه، بل هو جزء ووسيلة لفهم واقعه. فإن يبدو التأويل لحاقا بدلالات النص المقدس، فهو أيضا تنزيل للنص المقدس في واقع الإنسان، وكأن واقع الإنسان المسلم هو ترجمة لتأويل نصه الديني.

والكتاب الذي بحوزتنا هو بشكل عام محاولة لمخاطبة العقل الغربي، كون القرآن الكريم كتاب منفتح على عدة تأويلات وليس كما ترسّخت التصورات بشأنه في الفضاء الغربي، جراء أحكام مُسبقة، أو كما تريد بعض التوجهات السياسية احتكاره وحصره ضمنها؛ وبالتالي فالقرآن متعدد التأويلات وليس له هوية واحدة، بل هو كتاب متعدّد الأوجه ومتعدّد المسارات، ذلك ما يلحّ عليه كامبانيني. فَسرّ القرآن الكريم في تعدد تأويلاته، ولا يمكن لتوجّه فكري، أو سياسي، أو فقهي، احتكاره وهو ما برهن عليه التاريخ الإسلامي. يعي كامبانيني لعبة احتكار تأويل النص الديني، أو ما يُعرف باحتكار المعنى، الحاضر بشكل قوي في الواقع العربي والإسلامي. ويَعتبر أن محاولة الاحتكار فاشلة، لأنها تتناقض مع طبيعة النص القرآني المتضمن للمتشابه، وهو ما يولد التأويل

باستمرار وبتتابع. وعلى هذا الأساس يعتبر أنّ القراءة الحَرفية للنصوص المقدسة هي قراءة منافية لجوهر تلك النصوص، وكلما ترسّخ ذلك التمشي الحَرفي تولدت الصراعات الاجتماعية وزادت حدتها. كذلك يطرح كامباني إشكالية التفسير الحَرفي للنص المقدس، وهي إشكالية متواجدة في مجمل التقاليد الدينية، يتعرّض إلى محدودية أفقها وما تفرزه من ضيق وأرثوذكسية.

وعلى ما يمثله المؤلف بوصفه من أبرز المتخصصين الإيطاليين في العلوم الإسلامية وفي التحولات الدينية السياسية في البلاد العربية في الزمن المعاصر، فهو في كتابه الذي نتولى عرضه يركز جلّ اهتمامه على الكشف عن الآلية التي تتحكم بصناعة المعنى القرآني. ولعل الإضافة البارزة لماسيمو كامباني في مجال العلوم الدينية الإسلامية، تتمثل في محاولة الرجل الكشف عن الآليات العميقة التي تتحكم بتأويل النص الديني، نازعاً أي قداسة عن المقول التراثي في هذا المجال. وعلى العموم توزعت أعمال كامباني الفكرية على قسمين: قسم يغوص في آليات النص الديني المقدّس لدى المسلمين، من حيث تفسيره وتأويله وإعادة قراءته لدى المحدثين والقدماء، وقسم يتناول التحولات الفكرية والسياسية التي يشهدها العالم الإسلامي، والتي يحاول الرجل متابعة مساراتها وتجلياتها في عالم اليوم، مع إيلاء اهتمام بارز للتفسير السياسي الديني الذي بات يُهيمن على عقل المسلم، خصوصا ما بدا منه مع الحركات الإسلاموية.

وقد سبق لكامباني أن أصدر جملة من المؤلفات والأبحاث، تناولت العلوم الدينية الإسلامية والفكر السياسي الإسلامي، نأتي على ذكر بعضها: «الإسلام»، منشورات لاسكولا ٢٠١٣؛ «البديل الإسلاموي: مظاهر الانفتاح والانغلاق»، منشورات مونداوري ٢٠١٢؛ «تاريخ الشرق الأوسط»، منشورات إيل مولينو ٢٠١٠؛ «الفكر الإسلامي المعاصر»، منشورات إيل مولينو ٢٠٠٩؛ «تفسير القرآن الكريم في القرن العشرين»، دار مورشيليانا ٢٠٠٨؛ «أهل السنة»، منشورات إيل مولينو ٢٠٠٨؛ «مدخل إلى الفلسفة الإسلامية»، منشورات لاتيرسا ٢٠٠٤؛ «الإسلام والسياسة»، منشورات إيل مولينو ٢٠٠٣.

هذا وقد اعتمد المؤلف في كتابه الحالي على مصادر عربية كلاسيكية بالأساس، وبصفة الكتاب يتناول قضايا دينية إسلامية فقد كان التركيز على المصادر الإسلامية التي توزعت بين القديم والحديث. فالمؤلف على دراية بمسار التحولات التي شهدتها الدراسات القرآنية في الغرب، ومن هذا الجانب فالكتاب هو بمثابة مصالحة علمية للعقل الغربي مع النص القرآني. هناك تخلصٌ من الإسقاطات

الغربية في تعاملها مع نص القرآن الكريم، وهو محاولة جادة للإسهام في خلق نقاشات علمية بعيدة عن الإجحاف والغلو أو الأحكام المسبقة. فالمؤلف كامباني، إلى جانب فرانكو كارديني، وبيانكا ماريا سكارشيا أموريتي، هم من بين ثلة الباحثين الإيطاليين ممن يدْعون بإلحاح إلى ضرورة تطوير مناهج الدراسات الإسلامية في إيطاليا بعيدًا عن السطحية التي باتت تهيمن على تصورات الكثير من الأكاديميين. فهناك وعي لدى كامباني بضرورة خلق أسس معرفية موضوعية وعلمية في التعاطي مع العالم الإسلامي ومع المعارف الإسلامية، بعيدا عن التوظيف السياسي السائد اليوم. وعلى هذا الأساس يحاول كامباني الغوص في النص القرآني موظفا علوم الوسائل في ذلك، بعيدا عن مظاهر التعالي الغربي أو الأحكام المغرضة التي عانى منها فهْم القرآن. فقد سعى الكاتب إلى الكشف عن آلية تأويل القرآن الكريم عبر متابعة السبل المؤدية إلى ذلك. معتبرا النص القرآني، وعلى غرار غيره من النصوص المقدسة، أرضية للتأويل وملهما لصناعة أدوات التأويل، وبالتالي فالتأويل القرآني هو إدراك صادر من النص وعائد إليه.

المؤلف كاتبٌ قدير وهو من خيرة الدارسين الإيطاليين للإسلام وللتحولات الفكرية الدينية في العالم الإسلامي، كما يبدو على إلمام واسع ودقيق بموضوعه، وهو ما لا يتأتى إلا لمن تخصّص وتعمّق في حقله على مدى سنوات. فهناك دقة لدى الكاتب في نقل مصطلحات علم التفسير وتوظيفها، على غرار ما هو متناول في كليات الشريعة في البلدان الإسلامية في هذا المبحث. صحيح أن الرجل يتناول إحدى قضايا العلوم الإسلامية من خارج، أي من خارج الدائرة الإيمانية الإسلامية، ولكن ذلك لا ينفي عنه سعة إلمامه بمجالات نحسبها حكرا على فقهائنا وعلمائنا. وهو بشكل عام ارتقاء لافت بالتعاطي مع النص القرآني، يقطع مع الأجواء العصابية التي عادة ما تتحكم بالنظر والتقييم للقرآن في الغرب، وهو كذلك غوص في إشكاليات علمية. من جانب آخر تشكو النصوص الإيطالية من سوء المتابعة من الجانب العربي، ولذلك يكاد يكون أثر هذا الكتاب غائبا في الكتابات الدينية العربية، والمؤلَّف على أهميته لم يُترجم بعد إلى اللسان العربي، مع أنه حظي بتقدير وترحيب في أوساط المنشغلين الغربيين بالنص القرآني قراءة وفهما.

وعلى مستوى مراعاة التقاليد المتبعة في البحث العلمي، تضمّن الكتاب فهرساً للأعلام، وفهرسا للمصطلحات، بالإضافة إلى جرد زمني بالمحطات الرئيسة للوحي، وقائمة بالمراجع العربية والأجنبية المعتمدة. ولكون الكتاب يتعلّق بقضايا العلوم الدينية، فلا أرى أنه تعوزه حاجة إلى الاستعانة بالرسوم أو الجداول أو الخرائط أو ما شابهها.

وكما أسلفنا القول يندرج مؤلف عالم الإسلاميات ماسيمو كامباني ضمن قضايا علوم القرآن، وفي ظلّ وفرة المؤلفات الحديثة التي تتناول القرآن والدين الإسلامي في إيطاليا، فإن قلّة من بينها تتوفر فيها الرصانة العلمية. وبالتالي يأتي كتاب كامباني في مقدّمة الأعمال القيّمة والهادئة التي تتناول مسائل دينية إسلامية. فالرجل على مقدرة وإلمام بقضايا معقدة دون سقوط في التجريد، ولعل استسهال الأمور هو ما ميز كثيرا من المؤلفات الإيطالية الصادرة في المجال في الفترة الأخيرة. والكتاب بوجه عام هو محاولة لمفْهَمة قضايا القرآن الكريم في التصور الديني الإسلامي بعيدا عن الأحكام المسبقة، وأمّا صاحبه فهو على دراية وإلمام بعقليتين، إسلامية وغربية، بشأن التعاطي مع نص ديني إشكالي لا يزال يثير شغف المنشغلين بالدراسات الإسلامية من غربيين وغيرهم.

الكتاب: القرآن الكريم وتأويله.

تأليف: ماسيمو كامباني.

الناشر: منشورات لاتيرسا (باري- روما) «باللغة الإيطالية».

سنة النشر: 2022.

عدد الصفحات: 160 ص.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

التفكير التكنولوجي: أفكار وأسرار وادي السيليكون

أدريان دوب

سعيد بوكرامي *

كيف صنع ستيف جوبز أو إيلون ماسك أو جاك دورسي أو بيتر ثيل عبقريتهم الخلاقة؟ ولماذا هيمنت أفكارهم التكنولوجية على عالم الابتكارات؟ ماذا يحدث بالضبط في وادي السيليكون؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة التي تبدو بسيطة تحتاج إلى فهم عناصر اللغة والأماكن المشتركة وشخصيات الوصاية والأفكار التي تحملها شركات التكنولوجيا أي كل ما يشكل إيديولوجيتهم المهيمنة على الحاضر والمؤثّرة على المستقبل.

يقوم المؤلف أدريان دوب باستعادة الأفكار الإبداعية والمبتكرة للتكنولوجيا، ثم يرسم لنا بانوراما عن التفكير الألمعيّ لصانعي وادي السيليكون منقباً عن جذور أفكارهم المتطورة باستمرار. يستند صاحب الكتاب إلى مقولة شهيرة ذكرها باراك أوباما في قلب وادي السيليكون، في جامعة ستانفورد، شهر أبريل ٢٠٢٢. قال فيها: «الآلات لا تتحكم فينا. لأنه يمكننا السيطرة عليها وإعادة بنائها». من خلال الدعوة إلى تنظيم المنصات الرقمية، التي يُنظر إليها على أنها تهديدات للديمقراطية، يتحدى الرئيس السابق للولايات المتحدة واحدًا من الأساطير الشائعة حول التقنيات الجديدة. وهذا أيضًا ما يقترحه أدريان دوب في هذا الكتاب المهم. إذ يعرض موجزا للأفكار المشتركة في عالم التكنولوجيا، ومصادر إلهامها وقبل كل شيء أوجه تناقضاتها.

يهتم الكتاب بكل ما يتصل بعالم التكنولوجيا وشركاتها ووسائل الإعلام التي تتابع وتحلل التطورات في هذا القطاع الاقتصادي الحيويّ. ولرسم صورة فكرية عن وادي السيليكون، يعتمد أدريان دوب على العديد من المصادر، في مقدمتها أعمال المؤلفين الذين أثّروا في الفاعلين التكنولوجيين، وكذلك المقالات التي نشرتها صحافة الرأي الأمريكية بالإضافة إلى العديد من الوثائق، على سبيل المثال، مواد الدورة التي درسها مارك زوكربيرغ في جامعة هارفارد وكذلك المقابلات التي أجراها المؤلف مع بعض الفاعلين. كما يقوم أدريان دوب بتحليل المؤتمرات والمقابلات مع الأشخاص المؤثرين مثل ستيف وزنياك المؤسس المشارك لشركة آبل ومارك زوكربيرغ مؤسس ومدير فيسبوك وإيلون ماسك الرئيس التنفيذي لشركة تيسلا وجاك دورسي المؤسس المشارك لتويتر وبيتر تيل المؤسس المشارك لباي بال.

يقسم المؤلف كتابه إلى سبعة فصول. يتناول كل فصل أسطورة ساهمت في تأسيس التفكير التكنولوجي مثل تراجع الجامعة، وانتشار الشكل على حساب محتوى المنصات الرقمية، وجماليات عبقرية القادة الاقتصاديين، والاتصالات الشخصية على المنصات الرقمية، ورغبة المستخدمين، ثم التعميم كمبرر لكل ابتكار وأخيرا الاحتفاء بالفشل.

ترتبط الأسطورة الأولى بالسيرة الذاتية لمبدعي شركات التكنولوجيا، الذين كانت لديهم خلفية غير نمطية في الدراسة إذ يعتبرون من الطلاب»المتسربين» أو « المنقطعين عن المسار الدراسي عدة مرات، بدعوى أنهم لا يتوافقون مع قوالب الدراسات الجامعية. حتى لو كان عدد المتسربين من الجامعات محدودًا، فإنهم يساهمون في خلق الصورة التي تعرضها التكنولوجيا كما يظهرون كيف يتصرفون تجاه قطاعات المجتمع الأخرى. في الواقع، يصف المتسربون علاقتهم بالتعليم العالي والبحث كعلاقة مع الزبائن ويعتبرون أن المؤسسة المدرسية تعتبر منتوجا غير مرض ولا يشفي غليل الطموحين. كما قال مارك زوكربيرغ: «ربما تعلمت برمجة المشاريع التي نفذتها بالتوازي أكثر مما تعلمت من الدروس التي تلقيتها في الجامعة» ص ٣٥. هذا النوع من الخطاب حول القطيعة الدراسية التي يروج له بعض قادة القطاعات التكنولوجية يبني سيرة ذاتية متماسكة تطوب الاستقلالية الفكرية والذاتية. ومع ذلك، وكما يشير المؤلف، فإن المسارات الدراسية المتقطعة ليست في الواقع شيئًا أصليًا، ولأنها غالبًا ما تنتهي بالرسوب والفشل الدراسي التام.

إن أسطورة التلميذ الفائق الموهبة الذي لا يتناسب تفكيره مع تعليم مرموق أُنشأ حول التسرب مبالغ فيها وغالبا ما يكون هذا «الأكثر تفاهة في السيرة الذاتية لشاب أبيض ثريّ» (ص ٤٢). بالنسبة للشباب، فإن التخلي عن الدراسة، الذي يتبعه في الغالب استئناف لها، هو نفس تجربة التعليم عن طريق الدراسة النصف السنوية المعتمد في كثير من الجامعات. وبالنسبة للجامعة فهي لا تعتبره قطيعة أو تخليا وإنما مجرد استراحة. لاحظ المؤلف وجود تشابه معين بين نماذج الأعمال التي طورتها التكنولوجيا والجوانب المشتركة لتجربة الجامعة. على سبيل المثال، تدعي شركة ليفت أن إعادة اختراع النقل من خلال استبدال السيارة بخدمة شاحنات صغيرة تتبع طرقًا محددة مسبقًا ... بمعنى آخر،استبدال السيارات بالحافلات! لكن يجب أن تكون هذه الحافلات مخصصة فقط للأشخاص الذين يملكون هواتف ذكية ومهارات استخدام ويعرفون كيفية تهيئة التطبيق المخصص. لقد طورت مشاريع عدة بواسطة طلبة جامعيين سابقين أصبحوا مديري شركات التكنولوجيا، وهذا يعني اقتراحًا للخدمات الموجهة نحو المستخدمين الذين لديهم خصائص ورغبات محددة، مثل امتلاك هاتف ذكي، على سبيل المثال.

ثم يعود أدريان دوب إلى كتابات مارشال ماكلوهان وتداعيات تلقيها. بالنسبة لممثلي وادي السيليكون الذين لا يثقون بمؤسسات الدولة والجهات الفاعلة، فقد كان مفهوم ماكلوهان للإعلام مفتاحًا مهمًا لاستيعاب إنجازاتهم؛ لأن هذا الأخير يوضح أن التطورات التكنولوجية الحالية لا توجد في الكائن، ولا في محتوى المنصات الرقمية، ولكن في الوسائط نفسها، وفي قوالب هذه المنصات. وبالتالي، عندما يبحث رائد أعمال تقني عن نموذج اقتصادي لشركته، فإن ما يهمه هو الطريقة التي يجب أن يهيكل بها منصته وليس التطبيق الذي سيعالج به بيانات الخدمة التي يريد تطويرها، سواء كان الأمر - يتعلق بالرحلات أو بالسيارات أو توصيل الوجبات أو مشاركة وصفات الطهي عبر الإنترنت إلخ. حقيقة، ما يبني واقع المستخدمين هي المنصات ومن يصنعها، وليس محتواها ومن ينتجها. لا تُبدي الشركات التكنولوجية أي اهتمام بالمجتمعات التي تتكون حول منصاتها (عمال التوصيل، والعملاء الذين ينشرون مراجعات المطاعم، وهواة الموسيقى، والمدونون، وغيرهم) ولا يتعرفون على المحتوى الذي ينتجونه على

المنصة باعتباره ثمرة عمل دؤوب. كما أن قادة المنصات يبتعدون عن المحتوى لإعلان حيادهم الظرفي. إذا كانت إدارة تويتر لا تتردد في التأكيد على الدور الذي لعبته المنصة خلال الربيع العربي، فإنها ترفض كل المسؤولية عن التصريحات المؤيدة للنازية التي تتداول بانتظام على منصتها.

السمة الثالثة للتفكير حسب نظام التكنولوجيا تتعلق بعبقرية قادتها، الذين ينبع نجاحهم من إبداعهم وأصالتهم. ومن أجل استكشاف أسس هذا الفكر، يعتمد المؤلف على كتابات الفيلسوف آين راند وعلى بحث معمق في سير هؤلاء القادة، ولا سيما بيتر ثيل، وسام ألتمان أو ترافيس كالانيك (مؤسس أوبر) أو ستيف جوبز (المؤسس المشارك لشركة آبل) أو إيلون ماسك (مؤسس تيسلا وسبيس إكس). يؤكد آين راند أن قادة التكنولوجيا يجسدون دور البطولة الفردية و«جماليات العبقرية» وهذه الجمالية تنطوي على العمل وعلى فكرة أن الشركة هي التعبير الحر عن الذات. لكن جمالية العبقرية هذه قد تنتج خيبة أمل عند مواجهة واقع التبادلات بين مستخدمي المنصات الرقمية. استنادًا إلى تأمل لمواجهة بين الثقافة المضادة وفكر وادي السيليكون. يوضح المؤلف أن قادة التكنولوجيا يتشاركون فكرة واحدة تفيد أن هناك اتصالا شفافا وحرا وفاعلا بين مستخدمي منصاتهم.

في الواقع، أدى التقدم التكنولوجي المذهل إلى الاعتقاد بأنه من الممكن تصميم أدوات جديدة لتحسين التواصل بين البشر. ومع ذلك، يبدو أن المنصات الرقمية ليست الأماكن المثالية للحوار والنقاش المأمول، كما يتضح بالفعل، من خلال المضايقات عبر الإنترنت أو مشاركة الصور المستهجنة. ولكن، بشكل أكثر مكرًا، وعلى عكس ما يدعي الفاعلون التكنولوجيون، تقوم المنصات بتحديد المحتوى المتاح وتشكيله، فهم يسهلون أشكالًا معينة من الاتصال مثل ردود الفعل القصيرة أو الآراء الخلافية. إن صانع المنصة «يجب أن يخفي مقاصده ليؤكد أن نموذجًا أفلاطونيًا معينًا للتواصل يحرك المنصة، بينما يقف بسعادة وهدوء خلف مقاطع الفيديو التي تعرض الأرض على أنها مسطحة وأمام الأفكار المعادية للسامية» (ص ١١٢).

تفترض نظرية المحاكاة، التي صاغها رونيه جيرار، أن كل رغبة بشرية هي محاكاة . في الأصل، تشير نظرية المحاكاة إلى وجود صراعات متأصلة في طبيعة الرغبة نفسها. ولكن من خلال تبني هذه النظرية، فإن الفاعلين الحقيقيين هم التكنولجيون - ولا سيما

بيتر تيل من خلال مؤسسته، التي أنشأها في عام ٢٠٠٦ - ومنحها قيمة رمزية متفوقة. وهذا ما يسمح لهم بالتأكيد بالهيمنة على الناس وتحويلهم إلى «قطيع» وأن المنافسة بين الشركات هي قبل كل شيء صراعات شخصية بين العباقرة الذين يريدون الشيء ذاته.

بالنسبة لأدريان دوب، «التشويش» هو المفهوم الذي يميز التفكير التقني على أفضل وجه، ويجد مصدره في إعادة تفسير التأملات الكلاسيكية حول «التدمير الإبداعي» التي طورها كارل ماركس ثم جوزيف شومبيتر. ولكن، على عكس هذين المؤلفين، لم يعد مفهوم التشويش يهدف إلى فهم تطور الرأسمالية بين الاستمرارية والانقطاع؛ فبعد إعادة تفسيره وتجريده من سياقه التاريخي، فإنه يسمح لممثلي وادي السيليكون بالاحتفال بتدمير أي استمرارية أو أي ركود. هذا الفكر، الذي يلخصه بوضوح شعار الفيسبوك «تحرك سريعًا وحطم الأشياء»، الذي ينطبق على العديد من القطاعات التي غالبًا ما تُعتبر أخطأ احتكارية. وبذلك يقدم التشويش نفسه كمبرر لابتكار ريادي من واجبه محاربة النظام المتحفظ. لكن هل عطلت أوبر «آلاف سيارات الأجرة الفردية التي كانت بالكاد تكسب لقمة عيشها»؟ هل عطل موقع يلْبْ احتكار القلة للرأي؟ يسأل المؤلف (ص ١٥٥). وراء هذا الخطاب، يكشف المؤلف عن «ارتياب عميق إزاء أي تراكم لقوى التقدم» (ص ١٥٥).

يختم الكتاب بالأسطورة الأخيرة التي يفاخر التفكير التكنولوجي بإعادة سردها، تلك التي تحتفل بالفشل كفرصة للقفز نحو التقدم، ونتيجة التعلم منه، تتحسن المبادرات الأخرى وتحقق النجاح. والدليل على ذلك أن العبارة المفضلة لنخبة وادي السيليكون هي «نعم للفشل لكن نحو الأفضل» وهي مأخوذة من مقولة لصمويل بيكيت حول «العجز عن الفهم والفشل والاستسلام» (ص ١٦٢).

إن الاحتفال بالفشل، الذي يعتبر تعويذة مستخرجة من سياقها التاريخي والأدبي، يسمح لأصحاب المشاريع التكنولوجية بأن يقولوا إن كبوات عديدة قد اعترضتهم و«سقطوا باستمرار في أوقات عصيبة» (ص ١٦٥). قد لا تكون الجملة تأملا لحالة مشتركة، ولكنها «حث على التطور وهو موجه إلى إنسان فريد من نوعه» يركز على «الذات الإبداعية» (ص ١٦٦-١٦٧). غالبًا ما تحجب هذه التعويذات التي نجدها خلال المؤتمرات والمقابلات مع القادة المزايا الاجتماعية أو العرقية أو الطبقية أو العمرية التي تسمح للبعض بالفشل «بشكل أفضل»، على عكس أولئك الذين تكون خصائصهم الاجتماعية أقل حظا والذين لا يملكون الموارد اللازمة ل «للنهوض» والنجاح بعد الفشل.

في النهاية، يصور الكتاب بمهارة أبطال وادي السيليكون محددا أسباب نجاح قطاع التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي وصعود وانتشار ابتكارات هذه الشركات وازدياد ثرواتهم المهولة. ولتفادي إنتاج عموميات شاملة وغير دقيقة حول قطاع يتضمن مجموعات مهنية متنوعة (مديرين، موظفين، صحفيين، إلخ)، يبين المؤلف بوضوح كيف تستمد التكنولوجيا الموارد الخطابية من الأدبيات العامة والأكاديمية. لذلك تفسر هذه الموارد، غالبًا بشكل خاطئ، لتتحدث عن أيديولوجية مشتركة نسبيًا تعمل على دعم الدفاع عن قطاع ينظر إليه بريبة وانتقاد. في حين يستمر وادي السليكون في إنتاج أفكاره المبتكرة والمذهلة نتيجة قدراته الذكية على الهروب من قواعد صارمة، وقوالب نمطية، ليفسح لحرية الإبداع والابتكار والمراهنة على المستقبل؛ لأن من يملك الأفكار المتجددة لا يفشل.

الكتاب: التفكير التكنولوجي: المشهد الفكري لوادي السيليكون

المؤلف: أدريان دوب

الناشر: Caen, C&F Editions. فرنسا

سنة النشر: 2022

عدد الصفحات: 184ص

اللغة الفرنسية

* كاتب ومترجم مغربي

الفولغا

جانيت هارتلي

محمد السماك *

نادرة هي الكتب الصادرة باللغة العربية أو المُترجمة إلى اللغة العربية والتي تتناول التاريخ الداخلي لروسيا القيصرية، ولروسيا الشيوعية – السوفياتية أو لروسيا اليوم. حتى الترجمات إلى اللغة العربية عن تاريخ الداخل الروسي تكاد لا تُذكر لقلّتها.

من هنا تأتي أهمية الكتاب الذي أصدرته جامعة «يال» في الولايات المتحدة، وأهمية ترجمته، لما يلقيه من أضواء على تداخل تاريخ هذه الدولة الكبيرة مع تاريخ شعوب وجمهوريات إسلامية في آسيا الصغرى والقوقاز.

فالكتاب يدور حول نظرية مشابهة للنظرية التي أطلقها المؤرخ اليوناني هيروووتس عن مصر عندما وصفها بأنها أي مصر- هي هبة النيل. وفي هذا الكتاب الجديد تقدم المؤلفة الأمريكية روسيا على أنها هبة الفولغا. وتروي سلسلة من الأحداث والوقائع التاريخية المرتبطة بهذا النهر والتي جعلت من روسيا ما كانت عليه وما آلت إليه اليوم؛ حتى أنها تقول إنه لولا نهر الفولغا لما كانت هناك روسيا. وهي العبارة التي تختم بها الفصل الأخير من كتابها الذي يقع في ٤٠٠ صفحة .

لقد ربط نهر الفولغا كما تقول المؤلفة بين بحر قزوين والبحر الأسود في الجنوب، وبحر البلطيق في الشمال. فالنهر هو أكبر أنهار أوروبا على الإطلاق، أي أنه أكبر من الدانوب الذي يجري عبر عدة دول أوروبية.

وإذا كان الفولغا يوفر طريقاً بحرية من أقصى الجنوب الروسي (البحر الأسود) إلى أقصى الشمال على البلطيق، فقد أقيم رابط بين البلطيق والقطب الشمالي. وتطلبت عمليات الربط هذه أيادي عاملة لم تتوفر إلا بالقوة، وفرض عليها العمل بالسخرة. أما العاملون فكانوا من شعوب القوقاز في الدرجة الأولى.

لم يذهب ذلك سدى، فقد أدى هذا الطريق النهري الاستراتيجي بين الشمال والجنوب الروسيين إلى تكوين الاقتصاد الروسي الذاتي (ومن ثم الاقتصاد السوفياتي) . كما أدى إلى تبلور وإنتاج الثقافة الروسية في الأدب والشعر والموسيقى . بل إنه أدى إلى صياغة نوع الحكومات والسلطات التي تتمتع بها.

ثم إن هذا النهر شكّل الحاجز المانع في وجه القوات النازية عندما غزا هتلر الاتحاد السوفياتي أثناء الحرب العالمية الثانية وعجز رغم تفوّقه العسكري عن دخول مدينة ستالينغراد واضطر إلى الانكفاء تحت ضغط «جنرال الجليد» الذي أصاب جنوده بالمرض والعجز. وتجدر هنا رواية القصة التالية، وهي قصة واقعية نشرتها هيلاري كلنتون وزيرة الخارجية الأميركية السابقة نقلاً عن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين. تقول القصة إنه خلال الحصار الألماني التجويعي للينينغراد لم يبقَ من عائق في وجه القوات الألمانية لاقتحام المدينة سوى نهر الفولغا المتجمد ولكنه لا يتحمل ثقل الآليات العسكرية الألمانية.

طال الحصار، واشتد القصف الألماني للمدينة التي انقطع عنها الطعام والشراب. بدأ الناس يأكلون جثث قتلاهم الذين كانوا يسقطون في الشوارع، وفي بيوتهم جراء القصف . كان والد بوتين جندياً في الجيش السوفياتي يخدم في الجبهة الأمامية، وبعد مرور أسابيع طلب إجازة لتفقّد عائلته في المدينة. ولدى وصوله رأى شاحنة عسكرية محمّلة بجثث قتلى مجموعة على عجل من الشوارع التي تعرضت للقصف الألماني. ولاحظ في رِجل جثة امرأة حذاء يشبه الحذاء الذي سبق أن قدّمه لزوجته قبل أن ينتقل إلى الجبهة، فطلب السماح له بتفقّد الجثة قبل دفنها جماعياً مع الجثث الأخرى، وذلك للتأكد من هوية صاحبتها. اكتشف الرجل أنها جثة زوجته، فحملها إلى البيت لدفنها في مقبرة العائلة. ولكنه اكتشف أن فيها بقية حياة. حملها إلى المستشفى الذي خرجت منه بعد أيام على قدميها. وفي العام التالي أنجبت ولدا أسمته فلاديمير !! وهو الحاكم اليوم في الكرملين.

زوّد الفولغا، هذا النهر الكبير، روسيا السوفياتية بالمحطات المائية لتوليد الطاقة الكهربائية مما مكّن جوزف ستالين من إطلاق ثورته الصناعية. وكان النهر شريان حياة الإمبراطورية الروسية حتى قبل الثورة الشيوعية. وهو الذي جعل من روسيا إمبراطورية، كما تقول المؤلفة هارتلي.

إلا أن الكتاب الذي يتحدث عن علاقة تاريخ روسيا بالنهر، يبدأ بإلقاء الأضواء على الدويلات الصغيرة التي قامت على ضفاف هذا النهر والتي ذابت أو ذُوّبت- كلها في الإمبراطورية الروسية ثم السوفياتية. ولعل من أبرز تلك الدويلات كازاريا، التي تبنّت الديانة اليهودية لأسباب استراتيجية، كما تقول المؤلفة. وبالفعل فقد كان من المقرر أن تكون دولة لليهود مع بدايات الحركة الصهيونية. يومها طرح مشروع الدولة اليهودية في أفريقيا، وتحديداً في يوغندا، إلا أن المؤتمر الصهيوني الخامس قرر المطالبة بفلسطين بحجة أنها مرتبطة عاطفياً بالتاريخ الديني لليهود، وأنها بسبب ذلك تتمتع بقوة جذب لليهود لا تتوفر لدى يوغندا في أفريقيا أو كازاريا في آسيا (الروسية).

مع ذلك، فإن اليهود الذي تجمّعوا في كازاريا لا

يزال معظمهم مستمرا فيها حتى اليوم.

ومن تلك الدويلات أيضاً بلغارخانة (وهي غير بلغاريا ولا تمت إليها بصلة) وهي مستمرة حتى اليوم أيضاً باسم «تتارستان» . و«المقاطعات الروس» (وهي لا تمتّ إلى روسيا بصلة أيضاً).

تقول المؤلفة إن الحكام في موسكو وفي لينغراد (اليوم استعادت اسم سان بترسبورغ) سيطروا وحكموا شعوب هذه الدول بالقوة، وبرقراطية شديدة متزمتة، وفرضوا عليها عقائدهم وعملوا على تذويبها بكل الوسائل. ولما جاء النظام السوفياتي، بدا نسبياً على الأقل- أقل تطرّفاً وتشدّداً مقارنة مع العهد القيصري رغم كل ما عرف عنه من تطرف وتشدد.

فبعد الحرب الأهلية عمّت المجاعة في الثلاثينيات من عام ١٩٠٠ نتيجة لفشل سياسة الدولة بالسيطرة على المزارع والحقول بعد فرض نظام المزارع الجماعية. ثم نشبت الحرب العالمية الثانية وأدّت إلى تلوث نهر الفولغا مما زاد من حجم المأساة الإنسانية في الدول التي كانت تعيش على مياه النهر للشرب وللزراعة.

لم تقف المؤلفة في رواياتها الموسعة للحياة على ضفاف الفولغا أمام الكوارث والمآسي الإنسانية فقط، ولكنها نقلت صوراً إنسانية مشرقة عرفتها شعوب النهر الكبير في الأدب والفن. فالنهر الذي يجري عبر جبال مرتفعة وسهول مترامية الأطراف، كان ملهماً للعديد من الأدباء والشعراء والرسّامين، حتى أنه -أي النهر- كان يُعتبر الملهم الأول للعديد من الإنتاج الأدبي الروسي. ولذلك يمكن القول عن حق بأن روسيا هي هبة الفولغا. ومنذ القرن التاسع عشر والأدب الرومنطيقي الروسي مصدره إلهامات نهر الفولغا. إن شعراء كباراً أمثال نيقولاي نكيراسوف، وأدباء كبارا أمثال مكسيم غوركي ورسامين كباراً أمثال إلبا ريبن، استلهموا رواياتهم وأشعارهم ولوحاتهم من النهر، كما تقول المؤلفة. ولعل أغنية بحار الفولغا، هي الأوسع انتشاراً في الأدب الروسي الحديث وحتى اليوم؟

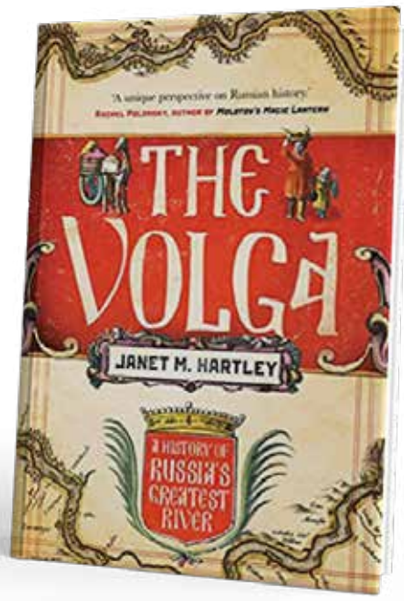

ولكن هذا كله، كما تشير المؤلفة، لا يغيّر من بشاعة الصورة الأخرى والمعاكسة، صورة العمال المستعبَدين الذين عملوا على إقامة الحواجز والسدود على طول مجرى النهر حتى يكون على ما هو عليه اليوم صلة وصل بين الجنوب والشمال الروسيين، ومصدر إلهام للأدباء والشعراء الروس .

لقد غاصت المؤلفة في أعماق التاريخ الاجتماعي الروسي وعكست ذلك في هذا الكتاب الموسع. وهي في الأساس عالمة تاريخ متخصصة بروسيا، ودرّست التاريخ الروسي لسنوات عديدة في كلية لندن للاقتصاد، وألّفت عدة كتب، منها كتاب عن صربيا.

غير أنَّ ثمة جانباً سلبياً في هذا الكتاب، يتمثل في الأسلوب العلمي الجاف للمؤلفة، رغم أنها تناولت قضايا إنسانية حساسة؛ فهي لم تتوقف إلا قليلاً جداً مثلاً أمام الثروات اللغوية للشعوب التي عاشت على ضفاف الفولغا، منها لغات: ستوفاج أدمورت ماري إيرزا موكشا. ولم تلقِ سوى أضواء خافتة على الشعوب أصحاب هذه اللغات، والتي لم تنقرض رغم اتساع انتشار اللغة الروسية على طول مجرى النهر، إما قسراً أو بحكم الواقع.

لقد أولت المؤلفة مثلاً اهتماماً بالمتحدرين من أصول ألمانية (والذين هاجروا بعد الحرب العالمية الثانية أو هُجّروا- إلى ألمانيا) أكثر من الاهتمام ببعض شعوب المنطقة مثل مسلمي تارستان، أو شعوب الأورال الذين يتحدرون من أصول تركية وفنلدنية، والذين حاولوا الاستقلال عن روسيا في عام ١٩١٨، ولكن حركتهم الاستقلالية لم تعمّر سوى أسابيع قليلة قبل أن تُسحق تحت القوة العسكرية لروسيا .

إلا أن المؤلفة تعزو حركتهم الاستقلالية في ذلك الوقت إلى تأثر إسلامهم بالحركة الليبرالية في أوروبة، وهذا اتهام اتُخذ مبرراً لسحق حركتهم التنويرية الوطنية.

وتذكر المؤلفة أن أحد قادتهم وكان يدعى صدري مقصود إرسال، تمكّن من الفرار بعد اجتياح القوات البلشفية ولجأ إلى تركيا حيث أصبح الملهم الثقافي لكمال أتاتورك أب تركيا الحديثة .

وتذكر المؤلفة أيضاً قصة الشاعر التاتاري موسى خليل الذي كان قد انضمّ إلى وحدة عسكرية ضمّت عناصر من شعوب الفولغا ثم أصبح سيداً عليها بعد أن اعتُبر بطلاً .

وفي نهاية الكتاب . تذكر المؤلفة أن روسيا مدينة في جزء من تاريخها الذي تفتخر به إلى أدوار ومساهمات قامت بها شعوب غير روسية، ليس في ساحات القتال فقط، ولكن في حقول العلوم والآداب الإنسانية أيضاً . إلا أن هذه الشعوب ذابت، أو ذُوّبت في المجتمع الروسي الكبير على طول مجرى نهر الفولغا !!

الكتاب : الفولغا The Volga
المؤلفة : جانيت هارتلي Janet Hartley
الناشر : جامعة يال Yale University
الصفحات : 400
التاريخ : 2021
اللغة: الإنجليزية

* مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي

السلاح الاقتصادي: صعود العقوبات كأداة للحرب الحديثة

نيكولاس مولادر

فينان نبيل *

كان صعود» العقوبات الاقتصادية» كأداة للحرب الحديثة بمثابة إشارة إلى صعود نهج «ليبرالي»مميز في الصراع العالمي. غيرت «العقوبات» الحدود بين الحرب والسلام، وأنتجت طرقا جديدة لرسم خريطة الاقتصاد العالمي والتلاعب به، وغيرت تصور الليبرالية لسياسة إجبار الدول، وغيرت مسار القانون الدولي. دار جدل شديد الخطورة منذ عام 1914 إلى إنشاء منظمة الأمم المتحدة عام 1945، حول ما إذا كان يمكن للعقوبات الاقتصادية أن تجعل العالم آمنا.

تصاعد استخدام العقوبات منذ نهاية الحرب الباردة، وتستخدم اليوم بقوة أكبر، ويكشف السلاح الاقتصادي عن نفسه كواحد من أكثر ابتكارات الليبرالية العالمية ديمومة في القرن العشرين، وأنه مفتاح لفهم التناقض والمقاربة بين الحرب والسلام. لم تكن«العقوبات الاقتصادية » تستخدم إلا في زمن الحرب من أجل عزل المجتمعات عن التبادل مع العالم الأوسع، وأصبحت الآن ممكنة الاستخدام في حالات أكثر، ويمكن تصور أنه تم وضع سياسة الحصار التجاري والمالي كشكل من أشكال الحرب الاقتصادية كوقاية ضد الحرب التقليدية.

يقدم الكتاب أصل وتاريخ «العقوبات «؛ فيرجعه إلى عام ١٩١٩ لكل من المندوب البريطاني، اللورد «روبرت سيسل «، ونظيره الفرنسي، ليون بورجوا». وعلى الرغم من الخلفية المختلفة لكل منهما، اتفق كلاهما على أن «عصبة الأمم» يجب أن تزوَّد بأداة إنفاذ قوية، فقرروا نشر نفس تقنيات الضغط الاقتصادي التي استخدمتها دول المحور ضد منافسي نظام «فرساي» والدول التي سيتم تصنيفها على أنها «معتدية» مستقبلا.

ساهم الانهيار السياسي، والاقتصادي العالمي التام في الثلاثينيات، واندلاع الحرب العالمية الثانية في اعتبار العصبة «منظمة طوباية»، واستنتج الكثير آنذاك، ومنذ ذلك الحين أن معاهدات السلام كانت معيبة بشكل قاتل، وأن المنظمة الجديدة كانت أضعف من أن تحافظ على الاستقرار، وأنها تفتقر إلى الوسائل الكفيلة بإخضاع مقلقي السلام؛ فكان لابد من استخدام شكل من أشكال القوة لا يمكن مقاومته ويخضع له الجميع، فتم تزويدها بنوع جديد، وقوي من الأدوات القسرية للعالم الحديث، كانت تلك الأداة هي « العزلة الاقتصادية المطلقة» للدول التي تهدد السلام.

وصف الرئيس الأمريكي «وودر ويلسون» ١٩١٩ «العزلة « بأنها شيء أروع من الحرب وأنها تعيد الدولة إلى رشدها، كما يزيل الحصار عن الأفراد كل الميول إلى القتال، ولا تكون هناك حاجة إلى استخدام القوة آنذاك، كما دعا لتطبيق هذا العلاج القاتل الصامت. إنه علاج رهيب، يفرض ضغوطا على الدولة التي يتم مقاطعتها دون الوصول إليها، ولا يمكن لأي دولة حديثة أن تقاومه. رأى ويلسون أن المقاطعة يمكن أن تشل معيشة أي أمة تجارية حديثة، والأمر لا يكمن فقط في العقوبات، ولكن في العجز عن الحصول على المواد الخام، ومنع المصانع من الإنتاج، والعجز عن الحصول على الائتمان، وعدم جدوى الأصول ونفعها. تكمن خطورة فرض العقوبات في ضغط أكبر وهو شعور الدولة المُحاصرة بالتذبذب، والاحتقار، وإضعاف الروح المعنوية يكون أكثر حدة من العقوبات المادية؛ فقد أكد ويلسون أنه «إذا كان العقلاء يرون أن الحرب بربرية، فإن المقاطعة غير المحدودة واحدة من أكثر أدوات الحرب فظاعة».

أدرج المنتصرون في الحرب العالمية الأولى السلاح الاقتصادي في المادة السادسة عشر من ميثاق عصبة الأمم، وقاموا بتحويله من سلاح في وقت الحرب، إلى آلية تُستخدم وقت السلم، مثل الآليات المبتكرة الأخرى لعمل عصبة الأمم في مجالات الحوكمة الاقتصادية العالمية، والصحة العالمية، والعدل الدولية . يشار إلى السلاح الاقتصادي أيضا باسم الحصار، وقد استخدمه الحلفاء، والقوى المرتبطة بهم بقيادة إنجلترا، وفرنسا ضد الامبراطوريات الألمانية، والنمساوية، والمجرية والعثمانية، وأقاموا وزارات وطنية للحصار، ولجانا دولية لضبط تدفق السلع، والطاقة، والغذاء، والمعلومات إلى أعدائهم، وكان التأثير شديدا على أوربا الوسطى، والشرق الأوسط، وكانت حربا اقتصادية غير مسبوقة؛ حيث نتج عن الحصار موت مئات الآلاف من الجوع، والمرض، وتشريد المدنيين بشكل خطير، مما جعل الحصار الاقتصادي يبدو سلاحا قويا.

يزعم الكاتب أن استخدام سلاح العقوبات كان سببا في تشكيل العالم ما بين الحربين، وصياغة بنية النظام السياسي، والاقتصادي الذي نعيشه اليوم، ومؤشرا للظهور الدولي لشكل جديد من أشكال الليبرالية، ذلك الشكل الذي عمل من خلال جهاز فني، وإداري يتألف من المحامين، والدبلوماسيين، والخبراء العسكريين، وخبراء الاقتصاد. عمل هؤلاء المسؤولون في وقت الحرب، وبعدها؛ ففي الفترة التي منحت فيها الحكومات الأوروبية مواطنيها حق الاقتراع، وطالبت لهم بالرعاية الاجتماعية، والضمان الاجتماعي، نظرت إلى السكان الآخرين باعتبارهم أهدافا مناسبة للضغوط القسرية، والعقوبات الاقتصادية، وتآكلت التقاليد القديمة مثل حماية المدنيين غير المقاتلين، والملكية الخاصة، والإمدادات الغذائية، وكان ذلك بمثابة تحول كبير ومعقد في النظام الدولي . يتم النظر إلى العقوبات الاقتصادية بشكل عام على أنها بديل للحرب، ولكنها في الحقيقة كانت جزءا من جوهر الحرب الشاملة بين الحربين العالميتين.

كان الهدف الأولي من إنشاء السلاح الاقتصادي بين الحربين العالميتين، هو عدم استخدامه، وكان منشؤوه يأملون أن يكون محض تهديد للدول التي تفكر في تحدي نظام فرساي استنادا لاعتقاد أن الخوف من الحصار قد يمنعهم، ويكون من شأن هذا الحفاظ على السلام. لكن ماحدث في الواقع أنه تم صقل أساليب للحرب الاقتصادية، وإعادة توجيهها لتستخدم في وقت الحرب والسلام، بل وتم تطوير حصار المجتمعات البشرية ماليا وتجاريا، كأحد أشكال الحرب، بينما كان المفترض أن تكون وسيلة وقائية ضد الحرب. لاحظ معارضو فرض العقوبات الآثار المدمرة الناتجة عن الضغط على المدنيين، ولكنهم قبلوها أحيانا كبديل أفضل من الحرب.

تظهر خطورة السلاح الاقتصادي عندما تتم مقارنته بالأسلحة الثلاثة الرئيسة التي تم استخدامها ضد المدنيين في فترة ما بين الحربيين العالميتين، القوة الجوية، وحرب الغاز، والحصار الاقتصادي؛ فقد اتضح أن الحصار الاقتصادي كان الأشد فتكا على الاطلاق في الحرب العالمية الأولى، فقد تسبب الحصار في قتل مئات الآلاف من وفيات المدنيين، بسبب ما نتج عن العزلة الاقتصادية من جوع، ومرض في أوروبا الوسطى، ومزيد من الوفيات في المقاطعات العثمانية في الشرق الأوسط متأثرة بالحصار الانجلو - فرنسي قبل الحرب العالمية الثانية، إلا أنه لم يكن من السهل تسليط الضوء على أدلة الإدانة، لإبراز الآثار القاتلة للحصار، حتى بالنسبة لمستخدميها المباشرين،

أعرب أرنولد فورستر، عن قلقه من أن السلاح الاقتصادي هو السلاح الذي يسهل استخدامه بدرجة كبيرة؛ فهو يبدو أنظف أدوات الحرب، ويمكن التعامل معه من قبل الهواة بمجهود أقل بكثير، وإدراك أقل للعواقب. كانت العقوبات الاقتصادية جذابة ليس فقط بسبب قوتها المحتملة، ولكن أيضا لأنها كانت سهلة الاستخدام لمن يتعاملون معها، ولم تكن سلطتهم القسرية تدار من قمرة قيادة قاذفة قنابل، أو من مؤخرة مدفع بل من وراء مكتب من خشب الماهوجني .

طارد شبح العقوبات أوربا في فترة ما بين الحربين، وأدى التهديد بفرض عقوبات ضد الدول الصغيرة إلى نتائج عكسية تجاه الدول القوية بما يكفي لاعتباره تحديا للعصبة، فقد خاطرت إيطاليا الفاشية بغزو إثيوبيا عام ١٩٣٥، وقطع ثلاثة أرباع دول العالم معظم علاقاته التجارية مع إيطاليا، لكن فشلت العقوبات في إلحاق الضرر بنظاموسوليني بالسرعة الكافية لإنقاذ أثيوبيا من الغزو والاحتلال، وكانت إيطاليا على استعداد لتحمل النقص، ورغم ذلك فقد اضطر موسوليني إلى إطلاق حملة من أجل الاكتفاء الذاتي الشامل في مواجهة العقوبات لتجاوز النقص المالي.

تركت تجربة العزلة الاقتصادية بصماتها على المجتمعات لعقود، وانتقلت آثار الجوع، والتدهور الصحي، وسوء التغذية على المجتمعات للأجيال التي لم تولد بعد؛ فقد أنجبت الأمهات الضعيفات أطفالاً متخلفين، ومتوقفين عن النمو، فضلا عما يؤدي إليه الحصار الشامل من انهيار اجتماعي. وهكذا يلقي السلاح الاقتصادي بظلال اجتماعية، واقتصادية، وبيولوجية طويلة الأمد على المجتمعات المستهدفة، لا تختلف عن التداعيات الإشعاعية.

أدرك السياسيون، والعلماء، والنسويون على وجه الخصوص ذلك خلال الحرب العظمى نفسها، وقام العديد منهم بحملات نشطة ضد استهداف المدنيين بالسلاح الاقتصادي. لعبت الحركة النسائية دورًا نشطًا في التاريخ الدولي في معارضة للعقوبات ومحاولة تخفيف قوتها إلى حد كبير. وتم وضع خطة اقتصادية ترمي إلى مساعدة الضحايا المتضررين لوجيستيا، ولكنها كانت مبادرة هشة وغير مستقرة نتيجة إعطائها الأولوية للانضباط والعقاب، وإهمال التضامن مع المتضررين، ولكن ظلت فكرة التضامن مع الدول المتضررة ذات أهمية فكان البرنامج العالمي للإقراض عام ١٩٤١ .

بذلت الأنظمة جهودا متواصلة لجعل الضغط الاقتصادي ضد المدنيين مشروعا من الناحيتين التقنية، والسياسية، وظل القانون الدولي يحاول وضع حدود اللوائح المنظمة لاستخدام القوة، والإكراه الاقتصادي، فقد استلزم السيطرة على دولة ما، التحكم فيما يقوم به مواطنوها في كل مكان في العالم. بدأ أنصار العقوبات في إعادة تعريف القانون الدولي لتقييد حرية الملاحة، وكذلك الحقوق التجارية المحايدة. وكان على كل دولة، وشركة، وأفراد أن يشاركوا في عزل المعتدي، فأدى ذلك إلى تغيير وضع التجارة الخاصة والاستثمار الأجنبي، وتدفقات رأس المال في الاقتصاد العالمي، وأصبحت

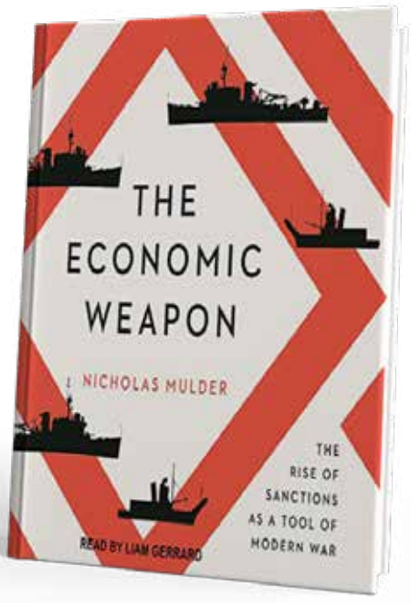

الشركات الدولية، والتجار، والمصرفيون، والمستثمرون قلقين من العقوبات في وقت السلم، بينما كانوا يناضلون لإعادة بناء وحماية شبكاتهم العالمية في أعقاب الحرب؛ فقد رغبوا في نظام اقتصادي وقانوني خال من التدخل السياسي، وحماية أعمالهم وأصولهم من خطر المقاطعة، أو خفض قيمة العملة أو المصادرة، كما طور منشئو العقوبات في فترة ما بين الحربين آليات التحكم في الطاقة، والإدراج في القائمة السوداء، وتقنين الاستيراد والتصدير، ومصادر الممتلكات، وتجميد الأصول، وحظر التجارة، ومنع الشراء، فضلا عن الحصار المالي.

تعتمد الحرب الاقتصادية على جمع المعلومات وإنتاج المعرفة، ففي سبيل عزل بلد بأكمله عن التبادل العالمي، كان لابد من رسم خريطة للنسيج الاقتصادي الذي يربطه ببقية العالم، مما استلزم إحصاءات دقيقة، وتطوير المعرفة، وهو ما يسمى بالسياسة البيولوجية، أي إدارة الدولة لحياة البشر، وممتلكاتهم في ظل ظروف العولمة.

بدت العقوبات كأنها ممارسة جيدة لحفظ السلام مقارنة بالآليات التأديبية الأخرى التي فرضتها الإمبراطورية الغربية، بينما كان الحماس لها في باقي العالم محدودا، وبدأ يتسبب في مشكلات، أصبح نظام الأمن الجماعي القائم على التبادل بين العقوبات، والمعونات معروفا، كان تبرير إلحاق الأذى بالدول عن بعد للنخب الأوروبية التي اعتادت على إدارة الإمبراطوريات الاستعمارية أسهل بكثير من تبرير الحرب.

أثارت العقوبات تساؤلات عظيمة حول علاقة أوربا بالعالم الأرحب، وعلى الرغم من كل الأحاديث النبيلة عن إنهاء الحرب بين القوى العظمى، فقد بات من الواضح في أوقات الأزمات الدبلوماسية أنها كانت تستهدف غالبا الدول الأصغر حجما.

كان لانهيار نظام ما بعد الحرب العالمية الأولى أسباب عدة منها تراجع الحماس للديموقراطية، وزيادة الشيوعية الثورية، وصعود الفاشية، وصدمة الكساد الأعظم، وفشل جهود نزع السلاح. ونتيجة لعدم الاستقرار كان طبيعيا أن ينزلق العالم نحو صراع عالمي جديد.

عملت العقوبات على تسييس الاقتصاد العالمي، وتفاعل العديد من البلدان مع البيئة الاقتصادية المتدهورة من خلال إطلاق برامج التعزيز الداخلي، والاكتفاء الذاتي، وبدلا من وقف المد القومي وما يترتب عليه من خطر الحرب، عملت العقوبات على تعزيزه، فضلاً عن ديناميكيات المنافسة، والتفاوت في النمو الاقتصادي، والتقدم الصناعي من جهة، والتنافس العسكري والصراع الأيديولوجي من جهة أخرى.

لم يحتكر الإمبرياليون الأوربيون استخدام الضغط الاقتصادي، فقد كان تقليد الحظر الذي يتمحور حول الدولة والذي قد تنشأ عنه العقوبات كان له نظير من المجتمع المدني، وهو تنظيم من عدم التفاعل الاقتصادي من قبل الحركات السياسية والاجتماعية ضد الطغاة الأجانب، أو الظلم الأخلاقي. استخدم المستعمرون الامريكيون والكويكرز البريطانيون مثل هذه التكتيكات في القرن الثامن عشر. كان عدم التفاعل المنظم كظاهرة عالمية موجودا قبل الحرب، وعرف باسم البويكوت ونشأ هذا المصطلح في حالة شهيرة عام ١٨٨٠ حيث قامت رابطة الأراضي الأيرلندية، التي حاربت من أجل حقوق الفلاحين الذين لا يملكون أرضا، باستخدام سياسة عدم التفاعل للضغط على تشارلز بوي كوت، الوكيل المستبد لصاحب الأراضي الغائب، لتقديم تنازلات للمستأجرين الريفيين، وسرعان ما استخدم اسمه على نطاق واسع كاسم، وفعل، ودخل إلى اللغة الفرنسية، وبعد عام واحد كان يستخدم في الإسبانية، والإيطالية، والبرتغالية، والسويدية، والألمانية، والهولندية، بل حتى عدة لغات آسيوية. يدل الانتشار السريع للمصطلح على أن المقاطعة كانت مرتبطة بشكل مباشر بعولمة التجارة والمعلومات في أواخر القرن التاسع عشر.

أثبتت التجربة، استخدام العقوبات الاقتصادية كبديل للحروب مجرد أمل بعيد المنال، وواحدة من المخططات اليوتوبية العديدة التي تسكن الصحف، وقاعات المحاضرات .إن تاريخ العقوبات في فترة ما بين الحربين ينير الطريق لعالمنا في القرن الحادي والعشرين؛ فاليوم يترنح الاقتصاد العالمي بين الأزمات المالية، والنزعة القومية، والحروب التجارية. تعمل العقوبات على تفاقم التوترات القائمة في إطار العولمة، ومن المؤسف أن المقصود من العقوبات تعزيز الاستقرار الدولي، إلا أن العواقب السلبية غير المقصودة قد تكون مدمرة بقدر الضرر المتعمد.

عنوان الكتاب: السلاح الاقتصادي: صعود العقوبات كأداة للحرب الحديثة

المؤلف: نيكولاس مولادر

الناشر: يالا- لندن 2022-.

لغة الكتاب: الإنجليزية

* كاتبة وباحثة مصرية

انتهاك حرمة المحاكم

سيباستيان بول

فيلابوراتو عبد الكبير *

الكاتب محام بارز وناشط سياسي يساري فضلا عن كونه أحد نواب الحزب الشيوعي في «راجياسابها» (مجلس الولايات) التابع للبرلمان الهندي. حصل على الدكتوراه في القانون الدستوري من جامعة كوشين. وقد تعرض لعدة مرات للمقاضاة فيما يتعلق باتنهاك حرمة المحاكم. فإذَن حين يحاول في هذا الكتاب البحث عن مدى ملاءمة هذا القانون في ضوء تجاربه الشخصية والتعديلات التي تمت في هذا الشأن في القوانين في عدد من الدول الغربية؛ فله قيمة إضافية تجعل كتابه محاولة جادة تستحق أن تأخذها الجهات المختصة بعين الاعتبار.

إن حرمة المحاكم معترف بها دوليا قانونا وعُرْفا، وانتهاكها جريمة يعاقب عليها من ينتهكها. وهذا القانون موجود في أغلب الدول بما فيه الدول العربية. يقول قانون الأردن، على سبيل المثال، في مادته الخامسة: « كل من نشر طعنا بحق قاض أو محكمة أو نشر تعليقا على حكم قاصدا بذلك تعريض مجرى العدالة للشك والتحقير يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة واحدة أو بغرامة لا تتجاوز مائة دينار أو بكلتا هاتين العقوبتين». ولكن هل المحاكم «بَقَرَة مقدّسة» إلى الحد الذي لا يجوز مساسها مما يجعل انتقاد أو تقييم سائر قرارات المحاكم ممنوعا منعا باتا ؟ هذا هو بيت القصيد في هذا الكتاب.

المحاكم مؤسسة ذات سلطة عريضة ولها اختصاصات هامة، ولحرمتها دور كبير في حماية السلطة القضائية المستقلة، لأن قراراتها لا تحتاج إلى اعتراف من الجمهور. ازدراء المحكمة ومضايقة السلطة القضائية وعصيان أوامر المحكمة والإعراض عن تنفيذها كلها جريمة تعد من انتهاك حرمتها. وتحقير القضاة والمحاكم قولا أو فعلا أيضا يُعدّ من هذا النوع من الجرائم. المحاكم مؤسسة محترمة لا شك فيها. ولكن حين يُطبّق هذا القانون بالتمّيز بين الأطراف وبدون حكمة وحصافة سيجعل القضاة مستبدين كما يجعل القانون أداة قمعية. ولذلك، يدّعي الكاتب، يجب أن لا يكون قانون انتهاك حرمة المحاكم مسترسلا بدون قيود وحدود حتى يكون أي انتقاد للأوامر الصادرة من المحاكم جريمة تترتب عليها العقوبة. لأن القضاة أيضا رجال يخطؤون ويصيبون. ولذلك أتت المحاكم العليا ومحاكم النقض في حيز الوجود.

الطبيعة الاستبدادية للمحاكم لها جذور تعود إلى قرون. «الحزيمة» التي كانت توجد في محاكم روما القديمة ترمز لهذه الطبيعة كما يشير إليها المؤلف. «الحزيمة» عبارة عن رزمة مربوطة من العُصي الخشبية يوثق بها أحيانا فأس كبير. كانت لها قيمة رمزية عالية في روما القديمة حيث عبّرت عن نفوذ مسؤولي الدولة وسلطتهم القضائية. يعود أصل الحزيمة إلى عهد الحضارة الاتروسكانية في إيطاليا وانفصلت من هناك إلى الحضارة الرومانية، ولازالت تُعدّ حتى الوقت الحاضر رمزا للسلطة القضائية والسياسية؛ فهي كثيرا ما تظهر كحمولة على شعارات النبالة وتظهر على عملة العشر سنتات في الولايات المتحدة كما تُعدّ نوعا من رموز الفاشية. وجدير بالذكر أن «الحزيمة» هذه تسمى في اللغة الإيطالية «فاسيز»(Fasces). إن كلمة الفاشية مشتقة من كلمة «فاسيز». مثل هذه الحزيمة تماما كانت في كيرالا قضيبة فضية طويلة حتى وقت قريب يحملها مرافق القاضي حين يدخل الأخير قاعة المحكمة.

وفي مقدمة الكتاب ينقل المؤلف قصة حارس يضرب يسوعَ عند محاكمته. يضربه وهو يسأل يسوعَ أهكذا تكلم رئيس الكهنة. ورئيس الكهنة هذا في مكان قاضي القضاة. نقرأ هذه الحكاية في العهد الجديد هكذا: وسأل رئيس الكهنة يسوعَ عن تلاميذه، فأجابه يسوع: «علنًا تكلمتُ إلى العالم، ودائما علّمتُ في المجمع والهيكل حيث يجمع اليهود كلّهم، ولم أقل شيئا في السر. فلماذا تسألني أنا؟ اسأل الذين سمعوا ما تكلمتُ به إليهم، فهم يعرفون ما قلتُه». فلما قال يسوع هذا لطمه أحد الحراس وقال له: «أهكذا تجيب رئيس الكهنة؟» أجابه يسوع: «إن كنتُ أسأتُ الكلام فاشهد على الإساءة، أما إذا كنتُ أحسنتُ، فلماذا تضربني؟ ثم أرسله حنان مقيدا إلى قيافا رئيس الكهنة (إنجيل يوحنا ١٨: ١٩-٢٤). لم تكن إجابة يسوع إجابة للسؤال الموجه إليه. فلم تُغفر الإجابة التي لم تقبل رضا جهة السلطة. وفي عبارة أخرى كانت إجابته رد طعنة لاذعة. وكانت تلك اللطمة في مثابة عقوبة لانتهاك حرمة المحكمة. نفس هذا القانون، يقول المؤلف، هو المتَّبع حتى في الوقت الحاضر.

أول قضية مرتبطة بانتهاك حرمة المحكمة التي سمع عنها كاتب هذه السطور كانت القضية التي تورّط فيها المُنظّر الشيوعي المشهور في كيرالا «إي. أم. نامبوتيري باد». كان ذلك في أواخر الستينيات حين كان رئيس مجلس الوزراء في ولاية كيرالا. في الحقيقة لم يكن ينتقد أي حكم صادر من محكمة معيّنة، بل كان مجرد تصريح أدلى به مشيرا إلى خصوصية نظام العدل في المجتمع الهندي حيث قال إن المحاكم في مجتمع برجوازي قائم في بلد مثل الهند لن تكون الأوامر الصادرة منها غالبا لصالح طبقة البؤساء والفقراء. لأنه من الصعب أن يخرج القضاة من طبائعهم الطبقية حسب قوله، فكثيرا ما قد تنحاز أحكامهم إلى البرجوازيين مضرة مصالح الطبقة البروليتارية والمهمشين. ففرضت عليه المحكمة العليا في الولاية عقوبة شهر في السجن مع غرامة ألف روبية. عند استئناف الحكم في محكمة النقض في نودلهي حاول المتهم لتبرير موقفه مفسرا تصريحه بأنه ليس إلا تعبيرا عن وجهة نظر مبنية على نظرية الصراع الطبقي. ولكن رئيس القضاة هداية الله لم يقبل دعواه ولو أنه قد خفّف مبلغ الغرامة ليصبح خمسين روبية فقط بدون عقوبة السجن. أثار هذا الحكم آنذاك جدلا ونقاشا في نطاق واسع في الدوائر الأكادمية في الهند. إلا أن سلسلة القضايا المرتبطة بانتهاك حرمة المحاكم لم تكن لها نهاية، بل استمرت حتى وقتنا الحاضر. ومن أمثلتها القريبة الأوامر الصادرة من محكمة النقض في نيودلهي ضد القاضي «كارنان» والمحامي البارز «براشانتا بهوشان». كان «كارنان» قاضيا في المحكمة العليا في «كولكاتا». كان ينحدر من طبقات المنبوذين في المجتمع الهندوسي. وقضيته كانت قضية غريبة. وفي تصريح أدلى به اتّهم القضاةَ في محكمة النقض في عاصمة الهند بأنهم من الطبقات البراهمنة ذوي النزعة العنصرية وأن هذه النزعة لها تأثير على أحكامهم الصادرة. كان يعاني من عقدة النقص. بداية اتهم زملاءَه بعداوتهم للمنبوذين حين كان قاضيا في المحكمة في ولاية مدراس. لما انتقل إلى المحكمة العليا في «كولكاتا»، توازنت حالته النفسية حتى بلغت رعونته إلى أوجها بحيث أصدر حكما بعقوبة

السجن على رئيس القضاة في محكمة النقض مع سبعة قضاة آخرين. فحكمت عليه محكمة النقض حكما بعقوبة السجن لمدة ستة شهور، ولكن المحكمة المعنية لم تتخذ الإجراءات المتبعة في مثل هذه الحالات. صحيح أن رئيس القضاة في محكمة النقض يجوز له عزل قاض في حالة وقوع خلل أوعدم توازن في عقله إلا أنه يجب قبل ذلك أن يتخذ البرلمان ومجلس الولايات التابعة له قرارا في ذلك بالأغلبية. ولم تعتن المحكمة بهذا الجانب من الإجرءات في قضية «كارنان». لو كانت المحكمة أجّلت حكمها حتى يتقاعد القاضي «كارنان» من منصبه لكان بإمكان المحكمة تفادي الطعن الموجه إليها بحبس قاض لم تنته مدته؛ لأن القاضي «كارنان» قد تقاعد بعد شهر من إصدار الحكم عليه. بما أن «كارنان» اختفى بنفسه في فترته الأخيرة تم تجنب المشهد من القبض عليه من قبل الشرطة.

كانت قضية - برشانت بهوشان - هي المثال الثاني من التطورات الأخيرة بهذا الصدد. إن «برشانت» من المحامين المشهورين على المستوى الوطني الذين يمارسون المحاماة في محكمة النقض في نيو دلهي. والظريف في الأمر أنه كان من مؤيدي الحكم على القاضي «كانرنان». ولكن تعرض هو الآخر لعقوبة السجن لمدة ثلاثة شهور ومنع من ممارسة العمل في المحاكم لنفس المدة. ثم تم تخفيض العقوبة لتصبح غرامة مبلغ وقدره روبية واحدة فقط. وكان السبب وراء مقاضاته بسيطا يمكن المرورعليه مرور الكرام حسب رأي المؤلف. كان ذلك مجرد تغريدة قام بها «بهوشان» على صورة فوتوغرافية يظهر فيها رئيس القضاة «بوبديه» بجنب دراجة نارية بدون أن يلبس الخوذة والكمامة.

القانون الذي أقرّه البرلمان عام ١٩٧١ بعد تعديل القانون في عام ١٩٥٢ هو الجاري حاليا في هذا الموضوع. ولكن مجلس الصحافة لم يكن راضيا بهذا القانون؛ ففي عام ٢٠٠٦ أضيف إليه بند جديد يفيد بأنه في حالة إثبات صحة الحادث الذي قاد إلى إهانة المحكمة تُرفع العقوبة عن المتّهم. قانون عام ١٩٢٦ إبان الحكم البريطاني هو الذي تم تطبيقه أوّل مرة في الهند في انتهاك حرمة المحاكم. لم يكن هذا القانون مدوّنا ذاك الوقت. وفي عام ١٩٥٢ قدم البرلمان بعض التعديلات في القانون. ولكن الملاحظات التي قامت بها محكمة النقض عن القانون ساقت إلى قانون جديد، فتم تعيين لجنة بقيادة القانوني «سانيال» عام ١٩٦٣ كما تم تعيين لجنة أخرى بقيادة «بهارجافا» فيما بعد لتقديم توصيات في هذا الصدد. وعلى ضوء التوصيات من هاتين اللجنتين في عام ١٩٦٨ تقدمت الحكومة المركزية في البرلمان بمشروع جديد في الموضوع حتى أصبح هذا المشروع قانونا مُطبّقا عام ١٩٧١. وينقسم

القانون إلى قسمين، قسم مدني وقسم جنائي. ويُعدّ من القسم المدني عصيان الأوامر الصادرة من المحاكم بينما يُعدّ من القسم الجنائي التصاريح التي تسيئ إلى المحاكم العدلية أو شخص القاضي. أي تصرف يعرقل أداء أعمال المحاكم يأتي تحت هذا القسم. أما العقوبة بموجب هذا القانون فهو الغرامة أو السجن لمدة ستة شهور مع الغرامة. وأقصى ما يُفرَض من الغرامة ألفا روبية فقط. ويمكن لمن انتهك القانون تقديم اعتذار لدى المحكمة المعنية؛ فمن اختصاصات المحكمة استثناؤه من العقوبة إذا ارتضت بذلك الاعتذار.

القضية الأولى التي تورطت فيها جريدة في الهند بموجب هذا القانون كانت في عام ١٨٦٨. كانت مرتبطة برسالة كتبها كاتب إنجليزي يسمى «وليام تايلور» في جريدة «إنجليز مان» انتقد فيها القاضي «دواراكا ميترا» مما طرح سؤالا عن صلاحية اتخاذ الإجراءات القانونية ضد الجريدة . كان القاضي «سير بارنيس بيكوك» الذي نظر في تلك القضية موافقا على اتخاذ الإجراءات إلا أنه لم ير تصرف الجريدة المذكورة مزعجا حيث اختتم القضية بقبول اعتذار الجريدة، وأشار القاضي في حكمه إلى ضرورة وجود الجرائد لحفظ حقوق الشعب. ولكن السياسي «سوريندرا نات بانارجي» لم يتم استثناؤه من العقوبة في قضية جريدة بنغالية عام ١٨٨٣. كانت التهمة ضد «بانارجي أنه انتقد قاضيا بريطانيا أصرّ على إحضار صنم في قضية أمام المحكمة. طبعا لم يوافق «دواراكا ميترا» الذي كان في هيئة القضاة على ذلك الحكم. «لماذا يُتخذ موقف في هذه القضية خلافا للموقف الذي أُتخذ في قضية جريدة «إنجليز مان»؟. كان هذا سؤاله الذي طرحه في ملاحظاته المخالفة التي سجلها في الحكم. كان هذا الحدث في عهد الحكم البريطاني الذي تنتقد فيه الجرائد المحلية المحاكم في الهند وتصب الزيت في نار الاحتجاجات ضد الاستعمار البريطاني. وكان «بانارجي» في مقدمة تلك الاحتجاجات. ثمة عدة جرائد تعرضت لعقوبة انتهاك حرمة المحاكم في عهد الحكم البريطاني في الهند بما فيه "young India" التي ترأس تحريرها غاندي. وقد استعمل هذا القانون سلاحا ضد الجرائد التي تؤيد الحركات الوطنية الاستقلالية في نطاق واسع.

أما بعد استقلال البلاد أيضا فكان بعض القضاة صارمين في فرض القانون على المتهمين بينما كان بعضهم غير مبالين به. يذكر المؤلف هنا الخطاب الناري الذي ألقاه المستشار «كريشنا أيار»، أحد القضاة المتقاعدين من محكمة النقض في نيودلهي في حفلة انعقدت بمناسبة اليوبيل الفضي للمحكمة العليا في كيرالا. انتقد «كريشنا أيار» في ذلك الخطاب محكمة النقض بكلمات لاذعة حيث حذّر من أنه قد يأتي يوم يتقدم فيه الشعب لهدم المبنى الضخم في طريق «تيلاك». كان قصده محكمة النقض الكائنة في عاصمة الهند، فرفع أحد المحامين دعوى انتهاك حرمة المحكمة ضده. ولكن رئيس القضاة «سوبراهمانيان» رفض الدعوى بناء على مبادئ عامة قانونية.

هكذا ينقل المؤلف في الكتاب، ولو كان حجمه صغيرا لا تتجاوز صفحاته مائة صفحة، معلومات قيمة عن الخلفية التاريخية لقانون انتهاك حرمة المحاكم داخل الهند. لا ينكر أهمية القانون ولا مدى فائدته في أداء واجبات المحاكم بصورة جيدة. ولكنه في الوقت ذاته يقول إنه لا يدعو إلى أن يجعل المحاكم كيانا مقدسا يحظر تحليل أحكامها والكشف عن أخطائها؛ فلا بد أن يكون القانون بهذا الصدد مقيدا بربطه بحق حرية التعبير الأساسي الذي يضمنه الدستور الهندي. هذا هو مغزى الكتاب.

الكتاب: انتهاك حرمة المحاكم

المؤلف: سباستيان بول

اللغة» مالايالام

عدد الصفحات: 96

سنة النشر: 2021

الناشر: دار الفكر للنشريات، تيروفانانتابورام، كيرالا

* مستعرب هندي

المراجع الألمانية المكتوبة عن القرآن: بيوغرافيا وبيبليوغرافيا

سردار أصلان

رضوان ضاوي *

لا يبالغ المؤلف أصلان سردار حين يؤكد على الأهمية البالغة التي تحظى بها البيبليوغرافيا في مجال البحث العلمي؛ فلا يوجد باحث متخصص في عصرنا ظلت المنشورات المهمة لأبحاثه العلمية مجهولة عنه ولم يستطيع أن يُلحقها ببحثه، كما يؤكد على ذلك المؤلف سردار أسلان في كتابه الجديد «المراجع الألمانية المكتوبة عن القرآن: بيوغرافيا وبيبليوغرافيا».

وخلال عقود طويلة، وحتى اليوم، أنجز الباحثون الألمان والغربيون ترجمات مهمة نُشرَ معظمها في دور نشر أوروبية مثل النمسا، وألمانيا، وسويسرا، وإيطاليا، وهولندا، وإسبانيا، وبريطانيا. ونظراً لأن معظم هذه الترجمات والدراسات قديمة ونادرة ومفقودة، لغياب إعادة نشرها وتوفيرها في المكتبات، أو نظراً لأن ثمنها باهض جدا، لدرجة استحالة التفكير في اقتنائها، صنّف الباحث الألماني أسلان سردار تلك المؤلفات في عمل أكاديمي ببيليوغرافي مهم استغرق منه وقتا طويلا وجهدا مضنيا، علما أنه يظل عملاً يحتاج إلى تحيين وإضافة وإصدار أجزاء جديدة له. وصحة هذا القول يؤكدها ما كتبه المؤلف بأنه حتى الأيام الأخيرة من الانتهاء من عمله اكتشف في قائمة المراجع الحالية عناوين جديدة، كانت كذلك غير معروفة ببساطة بسبب الزيادة الهائلة في الإصدارات، أو لأنه تم نشرها في أماكن نائية، وبالكاد يمكن اكتشاف أمر وجودها. ويعتبر هذا البحث مساهمة قيمة في الدراسات القرآنية. من هذا المنطلق فإن هذا البحث مهم جدا لأنه يوفر للباحث المتخصص المصادر الموثقة، علماً أنّ تأسيس علم اللاهوت الإسلامي في الجامعات الألمانية كان بمثابة نقطة تحول بالنسبة لأبحاث القرآن الكريم الألمانية. وتكمن الأهمية القصوى لمثل هذه البيبليوغرافيا في أنها توفر المؤلّفات السابقة من أجل المقارنة بينها أو من أجل انتقاء الأجود منها وتقديم لمحة عامة عما هو متاح منها بالفعل.

قدم المؤلف لمحة موجزة عن الكثير من البيبليوغرافيات السابقة، ويعود تاريخ أول عمل من هذا النوع إلى حوالي قرن من الزمان. في ذلك الوقت، في عام ١٩١٩، قدم فريدريش شوالي (Schwally ١٨٦٣ - ١٩١٩) لمحة عامة عن المجلد الثاني من النسخة المنقحة لتاريخ القرآن بقلم تيودور ولديك (١٨٣٦-١٩٣٠)، وهو البحث المسيحي الأكثر حداثة، والذي ناقش فيه الدراسات الفردية في التاريخ وتفسير القرآن. بعد سنوات قليلة، جمع غوستاف بفانمولر (١٩٧٣-١٨٥٣ Pfannmüller) وعلّق على المراجع المكتوبة عن الإسلام في كتابه «كتاب المؤلفات المكتوبة عن الإسلام» (١٩٢٣) وخصص فصلاً منفصلاً للقرآن. وفي عام ١٩٥٥ تم نشر كتاب الدراسات العربية في أوروبا في شكل موسع بقلم يوهان فيك (١٨٩٤-١٩٧٤)، الذي يقدم في المقام الأول تاريخًا لامعًا للبحث في مجال الدراسات الإسلامية والتاريخ الأدبي. البيبليوغرافيات البارزة الأخرى التي تحتوي أيضًا على مواد قرآنية هي: Index Islamicus، وTheologicus، وبيبليوغرافيا المؤلفات والأبحاث الجامعية بقلم كلاوس شوارتز (١٩٤٣-١٩٨٩) والبيبليوغرافيا الحيوية لإيريكا بير. ويذكر المؤلف أن فؤاد زتسكين والباحثين العاملين معه في تاريخ العلوم العربية والإسلامية قاموا بنشر بيبليوغرافيا واسعة النطاق تضم الدراسات العربية، وقد ضم المجلد الأول من كتابه الموسوعي الضخم « تاريخ التراث العربي» تأريخا لبدايات وتطور علوم القرآن والحديث والتاريخ والفقه والعقائد والتوحيد والتصوف. وقسم موضوع القرآن إلى أربعة مواضيع فرعية كبيرة: عام، وقراءات، وموضوعات وزخارف، وترجمات للقرآن. تعد هذه البيبليوغرافيا مساهمة كبيرة في حقل الدراسات الإسلامية، لكنه كأي عمل بحثي متخصص، لا يخلو من الأخطاء ويهمل الكثير من الأعلام المهمة.

وعلى كل حال، فإنه قد مر خمسة وعشرون عاما على ظهور هذا العمل، حيث تم إضافة الكثير من الكتب والمؤلفات في مجال ترجمات القرآن الكريم. بالتالي واضح جداً أن الغرض الأساسي من هذا الكتاب هو التأكيد على ضرورة التحديث في مجال البيبليوغرافيا، ليس فقط في مجال الدراسات القرآنية، ولكن أيضا في باقي المجالات. وطبعا يوجد عدد من البيبليوغرافيات المنفصلة حول الموضوع الفرعي لترجمات القرآن الكريم يكمل بعضها البعض ويصحح بعضها البعض. هكذا وثق أحمد فون دنفر الذي ولد سنة ١٩٤٩ في دراسته المادة القرآنية حتى عام ٢٠٠٠. ويحتوي الدليل الخاص بترجمات القرآن، الذي نشره هارتموت بوبتسين وبيتر كلاين في عام ٢٠٠٧، على معلومات قيمة، وهو بعنوان: «كتاب الإيمان والأدب العالمي. دليل ترجمات القرآن في ألمانيا من الإصلاح الديني حتى اليوم.»: ترجمات القرآن- جسر بين الثقافات (٢٠٠٧). أما الباحث الألماني المقيم في مصر ميشائيل فيش فقد نشر عام ٢٠١٣ دليلا لترجمات القرآن إلى اللغة الألمانية «أم الكتاب: بيبليوغرافيا نقدية لترجمات (معاني) القرآن إلى اللغة الألمانية من ١٥٤٣ حتى ٢٠١٣». ميزة هذا العمل أنه جاء في توقيت مناسب جدا لمثل هذه الدراسات، ضمن اهتمامه بالبيبليوغرافيا التوثيقية النقدية عن «ترجمات (معاني) القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية»، باعتبارها مساهمة في إغناء مجالات «الدراسات المقارنة» و«الدراسات الإسلامية»، حيث وثق أكثر من ستين اسماً بارزاً في سماء الاستشراق الألماني وفي مجال «التلقي الألماني والأوروبي الغربي لمعاني القرآن الكريم»، ولكن أهم نقاط ضعف هذا العمل تكمن في عدم وجود الاكتمال البيبليوغرافي الذي لم يكن هدف هذه الدراسة الأساسي. وفي عام ٢٠١٢ نشر مرتضى كريمي-نيا «ببيبليوغرافيا القرآن الكريم دراسات في اللغات الأوروبية» في إيران وهي لذلك ربما بقيت غير معروفة تمامًا في مجال اللغات الأوروبية، وقد رتبها المؤلف ترتيبا أَبْجَدِيًّا حسب اسم المؤلف وتحتوي على ٨٨١٢ مقالة باللغات الأوروبية. أما عناوين هذه الدراسات فقد ترجمها إلى اللغة الفارسية.

وبشكل عام، فإن من مظاهر الضعف في البيبليوغرافيا العالمية أنها تكون في الغالب عملا فرديا، ولا توجد بيبليوغرافيا كاملة، والعديد من المواد تكون مفقودة وقد تسللت إليها الأخطاء. وهو أمر ينطبق أيضا على البيبليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم. لا يستطيع البيبليوغرافي التعامل بمفرده لُغَوِيًّا مع المادة بعشرات اللغات ولا اختراقها بِبْلِيُوغْرَافِيًا، خاصة عندما تمتد الفترة على مدى قرون.

وفي عام ٢٠١٤، نشر رامين خانباجي ببيليوغرافيا بين الثقافات للقرآن مؤلفة من ٩٩٨ صفحة، وهي مقسمة إلى موضوعين (ترجمة مترادفات القرآن ودراسات القرآن). لكنها مخيبة لأمل الباحث ولا يمكن اعتبارها كاملة، رغم أنها عمل ضخم، فهي تظهر جزءًا صغيرًا فقط من المادة بأكملها. فنصف عدد صفحات العمل يحتله الفهرس والمراجع، مما يوضح أنه قد تم التغاضي عن الكثير من المنشورات المهمة.

في عام ٢٠١٨، نشر ميشائيل فيش مرة أخرى كتابا جديدا بعنوان: «علوم القرآن دليل دولي للبحث النقدي والتاريخي في القرآن من ١٨٠٧ إلى «٢٠١٧، وعدد صفحاته ٨١٠. وهو يوثق ٢١٠ سنة من علوم القرآن مع مراعاة المجالات البحثية ذات الصلة، من بداية القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر. ويحتوي على ٦٦٠٠ مدخلات ببليوغرافية مشروحة في الغالب. تتراوح هذه المراجعة الكرونولوجية لقرنين من الدراسات القرآنية منذ جوزيف فون هامر بورغستال إلى أنجيليكا نويفرت ويكملها فهرس الأعلام. كما توثق هذه البيبليوغرافيا العامة للقبول العلمي للقرآن والعلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ليس فقط في ألمانيا ولكن في العالم. ورغم أن لها تطلعات دولية، إلا أنها تركز على العناوين العربية في الغالب. مع ذلك، يكمن ضعف العمل في عدم وجود قيود موضوعاتية. من ناحية، يتم سرد العديد من العناوين ببيليوغرافياً ولها اتصال ضئيل أو معدوم بالقرآن أو العلوم القرآنية، ناهيك عن «الدراسات القرآنية النقدية-التاريخية»، ومن ناحية أخرى، عدد كبير جِدًّا من العناوين الموجودة خارجة بوضوح عن مجال الموضوع ولا تصب في موضوع العلوم القرآنية.

* باحث مغربي

يقترح الباحث سردار، في سعيه ليكون عملا قيما ومفيدا، استبعاد ما لا ينتمي إلى مجال موضوعها.

اهتم رجال الدين المسيحيون الذين أرادوا التعامل مع الإسلام بالقرآن من حيث الاستقبال والنقد ودرسوا الإسلام أو الدين الإسلامي بشكل مركزي في القرآن. وبدأ استقبال غير المسلمين للقرآن في المشرق المسيحي أساساً باللغتين العربية واليونانية، فلم يأت الاستقبال اللاتيني الغربي للقرآن إلا في وقت لاحق وبناء على ذلك الاستقبال العامي والشعبي للقرآن. وظلت أعمالهم مرجعا أساسيا على مدى قرون (اللاتينية في البداية) ولم يتم استبدالها إلا بعد قرون من قبل الآخرين أو ترجماتهم (العامية).

إنّ موضوع هذا الكتاب هو التأليف القرآني باللغة الألمانية وآدابها في أصوله التاريخية. فلقرون طويلة كان القرآن يكتب باللغتين اللاتينية والألمانية. كان الأدب اللاتيني مصدرًا مُهمًّا لاستقبال الألمان للقرآن حتى القرن التاسع عشر، تمامًا مثل الأدب الإنجليزي والفرنسي الذي اعتمد عليه العلماء الألمان. هذه العوامل وغيرها جعلت الكاتب يقرر، في هذا العمل البحثي التاريخي والببليوغرافي، استخدام التدرج في توثيق الاستقبال الألماني للقرآن الكريم.

انطلاقا من هذه الخلفية، كرّس الباحث القسم الأول بجزء تاريخي لاعطاء لمحة عامة عن تاريخ استقبال الألمان للقرآن. ويشمل استقبال القرآن في أوائل العصور الوسطى المبكرة والوسطى والمتأخرة. وفي القسم الثاني تعامل المؤلف مع هذا التلقي الألماني للقرآن الكريم في عصر الإصلاح، حيث ظهرت أولى ترجمات معاني القرآن باللغة الألمانية وعلماء ألمان مثل مارتن لوثر الذي لعب دورا أساسيا في نشر واستقبال معاني القرآن الكريم في ألمانيا. وفي القسم الثالث يتناول الباحث عصر الأنوار الذي عرف فيه استقبال معاني القرآن الكريم انتشارا واسعا، حيث تم نشر المزيد من الأدب القرآني باللغة الألمانية، ومع ذلك، ظل الاعتماد على النصوص واللغة اللاتينية والإنجليزية والفرنسية. و بالنسبة لهذا العمل، فإن الأقسام الثلاثة الأولى تسرد أيضًا أهم المؤلفين الذين كتبوا بلغات أخرى والذين يمثلون معالم بارزة في استقبال القرآن في الغرب. في القسمين الرابع والخامس الذين أدرجهما المؤلف في إطار الحداثة وما بعد الحداثة، يبدأ البحث القرآني المستقل باللغة الألمانية، والذي يجد تعبيره التاريخي في مؤسسة الدراسات الشرقية الألمانية بعد تحررها من اللاهوت المسيحي في القرن التاسع عشر وفي ظهور الدراسات الإسلامية الحديثة في القرن العشرين، أي فيما بعد الحرب، حيث أرست وجددت ووسعت من مدارك الدراسات الإسلامية والتزمت بتقاليدها.

قسم الكاتب العصور ووثق الاستقبال الغربي الأوروبي والألماني للقرآن بشكل متوازن ومتطابق حسب التطورات التاريخية المتعلقة بتطوير الأدب القرآني التاريخية. وقد خلص الباحث إلى أن عمليات العلمنة والعقلنة في سياق التنوير اخترقت الخطاب القرآني السائد مع ما يؤدي ذلك إلى الاستعانة في هذا المجال بالنهج التاريخي والنقدي. ويرجع تاريخ أول نصوص باللغة الألمانية عن القرآن إلى أوائل القرن السادس عشر. وهكذا فإن الأدب القرآني الناطق باللغة الألمانية يمتد على مدى حوالي ٥٠٠ عام. بالتالي يمكن القول إنه لا يمكن الإلمام بكل النصوص التي تناولت القرآن الكريم في المجال الناطق باللغة الألمانية، ومع ذلك فقد بذل المؤلف قصارى جهده لتضمين أكبر عدد ممكن من العناوين. فهو لم يقم فقط بدمج جميع المراجع والنصوص

السابقة واستخدام قواعد بيانات شاملة، ولكن أيضًا فحص أكثر من ٣٠٠٠٠ عنوان، وقدم ببيليوغرافيا كاملة لأكثر من ٣٠٠ مؤلف تضم عناوينها كلمة «القرآن-القرآنية» في قائمة المراجع الحالية. وكما هو معروف، يستخدم القرآن كمصدر أساسي في العديد من النصوص المتعلقة بالإسلام. ينبّه الكاتب إلى وجود الكثير من المراجع التي تحتوي على كلمة القرآن في العناوين ولا تتضمن دراسات تغطي بحوثا في القرآن أو نقلا عنه، أو أن الجزء المتعلق بالقرآن لا يشكل سوى فصل واحد من الدراسة. ويقول إن على الدارسين أن يراعوا على الدوام هذه الحقيقة حين يتعاملون مع مثل هذه العناوين والاستشهاد بها؛ إذ تبدو ليس لها اتصال على الإطلاق بالقرآن أو حتى بالإسلام، حيث يُزعم وجود إشارة إلى القرآن في العنوان ولكنها غير موجودة في النص لأسباب دعائية، كما هو الحال فيما يخص الكتاب التالي: «شريعة القرآن. الحاضر الإسلامي»، فبعد أن ألقى المؤلف نظرة حول الكتاب، وعلى جدول محتوياته، وجد أن موضوع الكتاب ليس القرآن، بل هو الموضوع التطبيقي للشريعة في باكستان والمملكة العربية السعودية. مثال آخر هو كتاب لودفيج ديرليث (١٨٧٠-١٩٤٨) الشعري «قرآن منطقة فرانكن»، الذي جمع فيه العالمين اللذين كرّس لهما طوال حياته، موطنه الأصلي فرانكانيا والشرق الإسلامي»، وهذا الكتاب يحتاج إلى دراسة فردية لمعرفة ما إذا كان إلهامًا قرآنيًا أو حتى شعريا وإلى أي مدى له علاقة بالقرآن.

وغالبًا ما يرتبط الغموض الببليوغرافي بالمعلومات والسمات غير الصحيحة بالإضافة إلى المؤلفين أو المترجمين غير المعروفين. كذالك الشأن بالنسبة للتكرار في المعلومات والتنقل جيئة وذهابا وتصحيح عدد من الأخطاء وتحديد المعلومات المجهولة بحيث تم توفير المعلومات الببليوغرافية وفقاً لحالة البحث الراهنة.

عمل المؤلف على إدراج الكتّاب الذين لديهم أكثر من عمل، ورتبهم ترتيبًا زمنيًا حيث يتم سرد تواريخ الميلاد أو الوفاة أو العمل. ويتم تقديم معلومات أساسية عن المؤلف المعني. بالإضافة إلى ذلك، هناك تحليل لاستقبالهم للقرآن، لا سيما في حالة الشخصيات التاريخية، والذي غالبًا ما يتجلى في عرض النصوص القرآنية المهمة. ويكتمل الجزء التحليلي بذكر السياقات والخطابات التاريخية، ثم يليه التعريف بالنصوص المكتوبة عن المؤلفين أو أعمالهم- مرة أخرى ترتيبًا زمنيًا-. يهدف الترتيب الزمني إلى تسهيل متابعة تاريخ الدراسات. ويتم سرد العناوين المتعلقة بالإسلام فقط أو الخاصة بالقرآن، أي الكتابات المتعلقة بالقرآن للمؤلف/ الببليوغرافي من قبل المؤلف، أما العناوين فهي مرقمة حسب سنة النشر. ويختتم الكتاب بفصول تحتوي على دراسات باللغات الأجنبية.

وبشكل عام، تتم فهرسة جميع المواد المطبوعة، حيث هناك ثلاث فئات: دراسات ومقالات ومراجعات. وتم تسجيل الترجمات من اللغات الأخرى -في الغالب مع توثيق العنوان الأصلي-، وتنتمي كذلك النصوص الألمانية المنشورة في الخارج أيضًا إلى قائمة المراجع، مع ذكر جميع الطبعات المعروفة لكتاب ما وكذلك جميع طبعات الكتب المعاد طباعتها. وأدرج المؤلف ترجمات الكتابات باللغة الألمانية إلى لغات أخرى، حتى لو لم تكن كاملة، علماً أن هذا العمل الببليوغرافي يحتاج دائما إلى إعادة التوثيق والتدقيق، لأنه ليست كل الترجمات معروفة. ويؤكد المؤلف أن مراجعة عناوين اللغات الأجنبية باللغة الألمانية قد تم أخذها في الاعتبار. كما يلاحظ أن المؤلف اعتمد على قواعد الجمعية الألمانية للاستشراق DMG فيما يخص الكتابة والتوثيق باللغة العربية أو لكلمات مفاتيح مثل كلمة «القرآن» أو «محمد». ومع ذلك، يتم نسخ العناوين الببليوغرافية طبقًا للأصل، ويتم توضيح أسماء المؤلفين، حتى إذا كانت مختصرة في الأصل، مع مراعاة أسماء مؤلفي العصور الوسطى التي لها تهجئات مختلفة، مع تفضيل واضح للنطق الألماني للأسماء. أما إذا كانت في بعض الأسماء تهجية متفاوتة وغير متسقة باللغتين التركية أو العربية، فإن المؤلف يفضل استخدام التهجية الأصلية ما لم يكن المؤلف أو الكاتب نفسه يكتب باستمرار اسمه بطريقة معينة. وبالنسبة للكتب، فإننا نجد المؤلف قد وفر لنا البيانات الأساسية: المؤلف، العنوان، مكان النشر، الناشر، سنة النشر.- وتكتب المدن وفق التهجية الألمانية الحديثة، أما إذا كانت المعلومات غير معروفة، فيشار إليها بعلامة استفهام(؟).

هذا الكتاب هو أول عمل أكاديمي في العصر الحديث يناقش في الجامعة الألمانية ويشرف عليه أكاديميون متخصصون، وبالتالي فإن تقديمه للمهتم والمتخصص العربي وترجمته إلى اللغة العربية سيكون مفيدا للمكتبة العربية، وإضافة نوعية تسد فراغا مهولا في مجال الببليوغرافيا بشكل عام، والببليوغرافيا التي تتناول الدراسات القرآنية في أوروبا بشكل خاص.

الكتاب: المراجع الألمانية المكتوبة عن القرآن: بيوغرافيا وببليوغرافيا

الكاتب: سردار أصلان

دار النشر: ديتيب DITIB، 2022.

لغة النشر: اللغة الألمانية

عدد الصفحات: 550

* باحث في الدراسات الألمانية، الرباط

أنتيكامينوس

ألكسندر دوغين

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

في عام 2014 أدرجت المجلة الأمريكية «فورين بوليسي» مؤلف هذا الكتاب الصادر حديثا في موسكو، الفيلسوف الروسي ورئيس قسم علم الاجتماع للعلاقات الدولية في جامعة موسكو الحكومية ألكسندر دوغين ضمن قائمة أهم مئة مفكر في عصرنا. ينظر الكتاب في مسائل ذات طابع إشكالي، يحاول المؤلف من خلالها فهم المتغيرات الأساسية في الحضارة الحديثة وتحليل الأزمات العميقة في الأيديولوجيا والثقافة وعلم النفس والتنمية وذلك من منظور فلسفي.

ينطلق كاتب أنتيكامينوس (كامينوس كلمة يونانية تشير إلى من يقف حائلا لسيطرة الشر المطلقة) من فكرة أن الكثير من الناس اليوم يستخلصون استنتاجا مفاده أن البشرية تتحرك على مسار مختلف تمامًا مما كان ينبغي أن تسير عليه، وأن وعود التقدم في التنمية والازدهار العالمي قد تبين أنها خاطئة بل وغير قابلة للتحقيق. قبل مئة عام كان معظم الناس يتطلعون إلى المستقبل بتفاؤل وتوقعوا تغييرات نحو الأفضل، تغييرات كانت مضمونة إلى حد ما من خلال منطق التاريخ ذاته. اليوم يهيمن على المجتمعات مزاج مختلف تمامًا - إن لم يكن مروعًا بشكل مباشر، فهو على الأقل متشكك في القفزة التي ستضع البشرية في مسار الرقي والازدهار، وذلك على الرغم من استمرار التطور التقني بسرعته القصوى. ووفقًا لدوغين فإن هذا لا يؤثر بشكل مباشر على سعادة الإنسان ولا يضمن أي ارتقاء أخلاقي وروحي كما لا يعزز مفهوم العدالة في البنية الاجتماعية.

يتطرق ألكسندر دوغين إلى عالم الاجتماع البولندي بيوتر شتومكا، الذي يذكره في كتابه، ويدرج فكرته القائلة إن التقدم في العلوم الإنسانية انتهى عام ١٩٤٥ لتحل محله الأزمات الدورية والكوارث التي ما برحت تمتد وتتسع. فإذا ما كان هنالك مفكرون قلائل في بداية القرن قد دقوا ناقوس الخطر بشأن مستقبل البشرية، مثل أوسفلد سبينغلر، الذي أعلن «تدهور الحضارة الغربية»، وفريدريك نيتشه، الذي أشار إلى صعود العدمية، فإن الشعور بدنو الكارثة أصبح شائعا في مختلف البيئات العالمية. «السلام الأبدي الموعود وتعزيز القيم الإنسانية والعدالة والازدهار المستمر والقضاء على الفقر والنهوض الأخلاقي للبشرية، الذي كان متوقعًا منذ حقبة زمنية قريبة أصبح بعيد المنال. التكنولوجيا تزاحم الحياة ومع ازدياد سرعتها تتفاقم الغربة في الحياة أما أحدث إنجازات العلوم فتستعمل لتحسين المجمعات العسكرية (...) كلما تحدثوا عن السلام والطمأنينة زاد عدد ضحايا العنف الدموي» (٦٤-٦٥).

يركّز الجزء الأول والرئيسي من الكتاب على موضوع نهاية العالم والنظر في شخصية المسيح الدجال والحقل الدلالي لنهاية العالم دون الإشارة إلى أي تقليد ديني معين، علما بأن شخصية المسيح الدجال تمتلك ارتباطا قويا بالمسيحية. يمكننا القول إن المؤلف لا ينظر إلى شخصية الدجال وحسب، ولكن أيضًا إلى نظائره في الديانات التقليدية، مما يقود إلى موضوع التقليد. وبالنسبة له، فالتقليد عبارة عن مصفوفة بنيوية تشترك فيها مختلف البيئات بينما يعارضها المجتمع الحديث والنموذج العلماني للعلم.

في هذا السياق يشير دوغين إلى أن هناك اتجاهًا في المسيحية الحديثة يعمل على إقصاء المسيح الدجال من وعي المسيحيين تمامًا. وهكذا يتم إخراج أهم لحظة تاريخية للفرد المؤمن، حيث لا يعود الدين حينها تاريخيا ولا اجتماعيا، فظهور المسيح الدجال للمؤمنين هو لحظة أخيرة قبل نهاية العالم، وقبل المجيء الثاني للسيد المسيح، وبالتالي فالمسيح الدجال أداة لقياس الزمن المسيحي. «كثير من الأمور تعتمد على حساب الزمن كالموقف من المجتمع والعالم والتمسك بالدين (...) المسيحية بدون موضوع المسيح الدجال لا يمكن الاعتماد عليها، مما يعني أنها تفقد أهم أبعادها وتحول نفسها تدريجيًا إلى نوع من المحاكاة».

يحاول دوغين إيجاد نظائر وظيفية للمسيح الدجال في مختلف الأديان والعقائد، مستدعيا الإسلام أكثر من مرة، ومشيرا إلى عمل (Le Chemin de la Muhammad Assad (1976 ,Mecque. Paris حيث يتفق مع هذا الباحث في أن العمى الجزئي للمسيح الدجال (الأعور الدجال) وقدرته على الرؤية والسمع عن بعد والطيران بسرعة فائقة وغيرها من المعجزات الميكانيكية المنتمية إلى الحضارة الحديثة تدلّ على أن الحضارة التقنية الحديثة ترى جانبًا واحدًا فقط من الحياة وهو التقدم المادي وتتجاهل تمامًا جانبها الروحي (١١).

إن إحدى رسائل دوغين المفتاحية هي أن المسيحيين المعاصرين يواجهون صعوبات في الإيمان، ليس فقط لأنهم يعيشون في ثقافة معادية للمسيحية، ولكن أيضًا لأن «الإيمان يظهر لهم إما كشيء مجزأ أو كتجريد مفاهيمي. تفتقر المسيحية إلى الحياة، فهي ليست هامدة تمامًا ولكنها قليلة الحيوية. حياة المسيحيين شاحبة. لذلك نرى الكنائس نصف فارغة، ويساورنا الشك بوجود خطأ ما حين نراها ممتلئة»(٣٧).

يتتبع مؤلف الكتاب تاريخ الكنيسة ويصل إلى استنتاج مفاده أن الكنيسة في أوروبا تتحول من نظام مركزي للثقافة إلى مؤسسة اجتماعية أسوة بمؤسسات أخرى خالية من البعد السياسي، وبالتالي فقد تحولت الكنيسة إلى قطاع خاص. وحين نرى الكنيسة مشتبكة في حوار مع العلمانية نتوقع التنازل الذي ستقدمه وتراجعها المستمر عن مواقفها. ويذكر المؤلف أنه بين أعوام ١٩٦٢-١٩٦٥ وصلت التسوية بين الكنيسة والحداثة إلى ذروتها ففرغت الكاثوليكية من محتواها وتم كسرها بشكل لا رجعة فيه.

يتقدم الكتاب بتحليل أكثر شمولا للكنيسة الأرثوذكسية الروسية الشرقية ويؤكد على أن الملكية الأرثوذكسية في روسيا ظلت مستمرة حتى بداية القرن

الثامن عشر، بعد ذلك، وتحت تأثير الغرب، بدأت تفقد محتواها البيزنطي. «الانشقاق وإدراج التغييرات في الكتب الدينية وإصلاحات نيكون للكنيسة والابتكارات الغربية التي ساقها الإمبراطور بطرس الأكبر تمثل ضربة هائلة للتقاليد الأرثوذكسية. إن حيوية المسيحية الروسية تراجعت بشكل حاد (...) عشية الثورة البلشفية كانت المسيحية الروسية تمثل شكلاً تاريخيًا خاصًا لا يمتلك من الحياة المسيحية إلا النزر القليل. وهذا ما جعل القفزة الدراماتيكية الحادة نحو الإلحاد والمادية ممكنا (...) وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي جرى إلغاء الحظر الذي طوق الكنيسة. لم يكن ذلك بفضل المؤمنين إذ أدى غياب الضغط والقمع والفراغ الأيديولوجي إلى خلق ظروف مواتية لاستعادة رسمية لمكانة الدين، لكن هذا لم ولا يمكن أن يؤدي إلى تغييرات جذرية في الروح. بشكل عام لا يختلف موقف الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الحديثة كثيرًا عن موقف الكنائس المسيحية الغربية. إنها مؤسسة اجتماعية هامشية ليس لها تأثير مباشر على السياسة المبنية بالكامل على أسس غربية علمانية ولا على التعليم أو الثقافة. لكن بشكل عام فإن بنية المجتمع الروسي الحديث أكثر قدامة مما هي عليه في الغرب وهذا يعطي فرصة للكنيسة والمسيحية. مع ذلك، ومرة أخرى، فإننا نتحدث عن القصور الذاتي وليس عن مظاهر نهضوية»(٤٦-٤٧).

يتمثل ألكسندر دوغين في الجزء الثاني من الكتاب كمؤيد للمجتمع التقليدي الذي يختلف تمامًا في مواقفه الأساسية وأنظمة قيمه وبنيته الاجتماعية والسياسية عن المجتمع الحديث. وفيما يتعلق بافتقاد فكرة المجتمع التقليدي لشعبية واسعة، يستشهد دوغين بأفكار الفيلسوف الفرنسي الذي ينتمي إلى النصف الأول من القرن العشرين ريني غينون، مؤسس التقليدية المتكاملة ويقول: «إن الغالبية العظمى من البشر المعاصرين يعرّفون أنفسهم تلقائيًا بانتمائهم إلى المجتمع الحديث وذلك من دون تمحيص في الأمر. لذلك يشكل الفرد الحديث فكرته عن عالم التقاليد والمجتمع التقليدي بناءً على مبادئ خاطئة أصلا فهو ينظر إلى المجتمع التقليدي بشكل افتراضي على أنه شيء متخلف ومظلم، قائم على التحيزات والافتراضات غير العقلانية وباعتباره شيئًا غير علمي وغير متحضر بل متخلف بطبيعته. بعبارة

أخرى يُنظر إلى المجتمع التقليدي على أنه المرحلة الأولى من التطور الذي يسبق المجتمع الحقيقي أي المجتمع الحديث. يعتمد هذا النهج على الاعتراف البديهي بأن العالم يتطور نحو الكمال - من الصغير إلى الكبير ومن الأسوأ إلى الأفضل ومن البسيط إلى المعقد، وأن التقدم يتحكم في مسار تاريخ العالم. إن كل هذا فرضية لا أكثر ولا أقل، فرضية قُيّض لها الانتصار ولكن ضمن صراع غير عادل مطلقا. من هنا جاء سوء فهم التقاليد وقيمتها، ومن ثم عبادة الأصنام فيما يتعلق بالمادة والتكنولوجيا والفردية والسلسلة اللانهائية من الآلات الأوتوماتيكية الجديدة. على المرء فقط أن يتخلى عن فهمه هذا للتقدم وسوف ينفتح له العالم على ضوء مختلف. سوف يتضح له أن المجتمع التقليدي ليس تقويضًا للحداثة بل قائم على الخلود والقداسة والتسلسل الهرمي والتوجه إلى الله والروح وليس إلى الخبرة الحسية (...) أما نقيض ذلك فهو ارتقاء الضياع ووضعه في إطار قيمي ناهيك عن زرعه في كل مكان» (٦٧).

هنا تجدر الإشارة إلى أن ريني غينون قد اعتنق الإسلام في مرحلة معينة من حياته واستقر في القاهرة وأصبح شيخًا صوفيًا وقطع علاقاته مع الغرب والمجتمع الغربي قطعا بائنا. ومن خلال تجربته هذه ضرب مثالا على إمكانية الابتعاد عن العالم الحديث في الغرب والعثور على منزل روحي في الشرق.

الجزء الأخير من الكتاب يتمحور حول رؤية المؤلف للمستقبل الذي يراه فوضويًا. يكتب قائلا: «من الصعب تخيل كيف ستتطور العلاقات بين مؤيد للعولمة ومن يرى نفسه في عالم ما بعد العولمة، مع ذلك فبمقدورنا منذ الآن توقع النقاط الرئيسية لواقع ما بعد العولمة بشكل عام». في رأيه فالعالم يسير نحو المجتمع المنغلق الذي ما انفك يبرز أمامنا. يزعم الباحث أن سيادة الدول والحكومات ستتعزز بلا شك، وسيصبح مفهوم الأمن والسلامة نعمة النعم لأي شعب في أية دولة. يقول إن الحكومات الشرعية لن تقوم لها قائمة إلا إذا تمكنت من التعامل مع مهامها في إنقاذ الناس من الأوبئة والأوضاع الكارثية المصاحبة لها ثم تنظيم بنية سياسية واقتصادية وأيديولوجية قادرة على الدفاع عن مصالح هذا المجتمع المنغلق. «يجب أن يكون المجتمع المنغلق مكتفيًا بذاته، بمعنى أن عليه أن يكون مستقلًا عن الموردين الخارجيين ولا سيما في مسائل الغذاء والإنتاج الصناعي والنظام النقدي والقوة العسكرية» (٣٥٥).

لا يساور المؤلف الشك في أن إستراتيجيات التحالف دائما ما تكون ضمن أولويات الدول الحديثة: «الشيء الأكثر أهمية هو أن يكون لديك عدد كاف من الحلفاء الإستراتيجيين والمهمين من الناحية الجيوسياسية، يشكلون معًا كتلة قابلة للحياة. ينطبق هذا على الروابط الاقتصادية والمالية التي توسع حجم الأسواق المتاحة ولكن ليس على المستوى العالمي بل على النطاق الإقليمي (...) يمكن تخيل العالم السياسي في شكل مراكز عدة كبيرة وعدد آخر من المراكز الثانوية التي بمقدورها تلبية متطلبات الاكتفاء الذاتي. سيكون العالم مناظرا للإمبراطوريات التقليدية. هذا يعني نظامًا رأسيًا واحدًا للرقابة ومسؤولية الدولة ومؤسساتها الكاملة عن حياة المواطنين وصحتهم، إذ تتحمل الدولة المسؤولية عن تزويد السكان بالطعام مع ربط العملة الوطنية بالذهب أو السلع وليس بنظام الاحتياط العالمي ما يضمن معدلات عالية في تنمية الصناعات الوطنية» (٣٥٦).

الكتاب: أنتيكامينوس

المؤلف: ألكسندر دوغين.

الناشر: أكاديميتشيسكي برويكت/موسكو/2022

اللغة: الروسية

عدد الصفحات: 415

* أكاديمية ومستعربة روسية

ألمانيا: أمّة في وقتها قبل القومية وأثناءها وبعدها 1500-2000

هيلموت والسر سميث

وليد العبري *

هذا الكتاب هو أول تاريخ رئيسي لألمانيا منذ جيل، عمل يقدم سردا يمتد لخمسمائة عام، يتحدى تصوراتنا التقليدية لماضي ألمانيا المتضارب. منذ ما يقرب من قرن من الزمان، صور المؤرخون ألمانيا على أنها أرض قومية مسعورة، ولدت في بحر من العدوان. ليس الأمر كذلك، كما يقول هيلموت والسر سميث، الذي يتحدى في هذا التاريخ الرائد الممتد على مدى 500 عام - وهو أول مجلد شامل يتجاوز الحرب العالمية الثانية - التصورات التقليدية لماضي ألمانيا المتضارب، ويكشف عن أمة أكثر تعقيدا من حيث الموضوع من مؤرخي القرن العشرين.

يبدأ السرد الدرامي لسميث بأوائل وميض أمة في القرن الخامس عشر الميلادي، عندما كافح صانعو الخرائط ذوو الرؤية، والمسافرون المغامرون، لتحديد وتعريف هذه الأمة الجنينية. على عكس التصور الشائع، كان الأشخاص الذين وصفوا ألمانيا لأول مرة مسالمين في مزاجهم، ولم تدخل الأيديولوجية الخبيثة للقومية الألمانية إلا في تاريخ الأمة بعد قرون. بتتبع التوتر الكبير بين فكرة الأمة وأيديولوجية قوميتها، يُظهر سميث أمة تعيد اختراع نفسها باستمرار، ويشرح كيف حولت القومية الراديكالية ألمانيا في النهاية إلى أمة إبادة جماعية.

هدف سميث، إذن، ليس أقل من إعادة تعريف فهمنا لألمانيا: هل هي في الأساس دولة عدوانية قتلت أكثر من ستة ملايين شخص؟ أم نموذج سلمي للقرن الحادي والعشرين للديمقراطية المتسامحة؟ وهل كان من الحتمي أن الأرض التي أنتجت جوته وشيلر وهاينريش هاين وكاتي كولويتز، سترتكب أيضا إبادة جماعية على نطاق غير مسبوق؟

بدمج النثر المؤثر مع صرامة المؤرخ، أعاد سميث خلق النشوة الوطنية، التي صاحبت بداية الحرب العالمية الأولى، تلاها اليأس الوجودي الناجم عن الهزيمة المدمرة لألمانيا. هذا الدمار النفسي من شأنه أن ينتج في نفس الوقت أمجاد الحداثة في باوهاوس، والصعود النيزكي للحزب النازي.

لا يوجد مكان يظهر فيه إتقان سميث بشكل أكبر من الفصل الذي يتحدث عن الهولوكوست، والذي ينظر إلى القتل ليس فقط من خلال مآسي أوروبا الغربية، ولكن أيضا، بشكل ملحوظ، أيضا من خلال عدسة القرى الصغيرة والأحياء الريفية في بولندا وأوروبا الشرقية، حيث يوجد المزيد أكثر من ٨٠٪ من جميع اليهود المقتولين. وبالتالي فهو يوسع نطاق المسؤولية إلى ما بعد المستويات العليا لدائرة هتلر، وصولا إلى المستوى المحلي. في جميع صفحاتها، تفحص ألمانيا أيضا الدور الذي لا غنى عنه، والذي تم تجاهله، والذي لعبته النساء الألمانيات عبر تاريخ الأمة، حيث سلطت الضوء على الفنانين الثوريين العظماء، والعنف المروع الذي نادرا ما يتم الاعتراف به، والذي نتجت عنه الحرب على النساء. غني بالرسوم الإيضاحية، مع الخرائط الأصلية التي أنشأها المؤلف، (ألمانيا: أمة في وقتها) هو سرد شامل لا يفعل شيئا أقل من إعادة تعريف فهمنا لألمانيا في القرن الحادي والعشرين.

يحمل كتاب سميث الطموح والمهم الحجج الأصلية حول ألمانيا والألمان، والأمة والقومية، من أواخر فترة العصور الوسطى حتى الوقت الحاضر. هناك ثلاثة مواضيع. يحدد الكتاب الرئيسي التاريخ القصير للقومية الألمانية في التاريخ الطويل للأمة الألمانية. يميز سميث أيضا بين «العصر القومي» و «عصر القومية». تماما كما لم يعتبر إيمانويل كانط أن معظم معاصريه مستنيرون، مدعيا أن عصره «عصر التنوير»، كذلك أطلق سميث على الفترة منذ أواخر القرن الثامن عشر «عصر القومية». ومع ذلك، في حين قد يعتبر كانط أنه لم يكن لدينا أبدا «عصر متنور»، بعبارة أخرى، عصر تهيمن عليه قيم التنوير، يجادل سميث بأن ألمانيا كان لها أيضا «عصر قومي»، متزامن تقريبا مع عصر الحربين العالميتين.

الموضوع الثاني، هو مكانة الحرب والسلام في التاريخ الألماني. يدعي سميث أن السلام، مثل الحرب، هو مركز ذلك التاريخ.

الموضوع الثالث يتعلق بما يمكن أن يسميه المرء «الرحمة الموسعة» في الواقعية الأدبية. يعتمد سميث على عمل إريك أورباخ الرائد. قام أورباخ بتحليل دقيق للفقرات في النصوص، بدءا من العهد القديم وهوميروس، وحتى روايات القرن العشرين، حيث رسم تاريخ الواقعية كنوع أدبي. كان مهتما بشكل خاص بإظهار متى وكيف يقدم ذلك صورا تعاطفية للأشخاص «العاديين»، بدلا من تجاهلها أو تنميطها.

إن الرأي القائل بأن الأمة لها تاريخ طويل، وأن القومية قصيرة، هي وجهة نظر متنازع عليها. يتوقف الكثير على التعاريف. إذا كنا نعني بكلمة «أمّة» إحساسا قويا وواسع النطاق بالهوية الوطنية، فإن العديد من المؤرخين سيعتبرون أن الأمّة بالنسبة لمعظم الناس، إن لم يكن جميع الحالات لها تاريخ قصير، إما بسبب عدم وجود مثل هذا المعنى، أو على الأقل دليل جيد لذلك. ومع ذلك، إذا كنا نعني بالأمّة خطاب النخبة الذي يصف الأماكن والشعوب على أنها وطنية، فهناك دليل جيد يمتد إلى العصور الوسطى، والعصور السابقة.

يعتبر الجزء الأول من الكتاب مثل هذا الخطاب. تطرح «القومية» أيضا مشاكل تعريفية. يتضمن حساب سميث مفهومين للهوية الوطنية: المدى والجودة. الهوية القومية هي عاطفة أقلية في «عصر القومية»، أغلبية في «العصر القومي». ومع ذلك، فإن التركيز على القومية العرقية والعرقية الراديكالية في هذه الفترة الأخيرة، يشير أيضا إلى أن القومية لها صفة مختلفة في «عصر القومية».

يركز سميث - بشكل مفهوم، نظرا لنطاق الكتاب - على الحالة الألمانية، متجاهلا التحليل النظري والمقارن. إنه يشير بالفعل إلى أحد المنظرين الرئيسيين إرنست جيلنر عندما ذكر أن الجزء الثاني من الكتاب «يحاول شرح كيفية حدوث هذا التحول الدرامي (أي: ظهور القومية) في المعنى والمغزى لمصطلح» الأمّة «. حول كيف أن القومية لم «تولد الأمم»، كما جادل الفيلسوف، وعالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية إرنست جيلنر، بل ظهرت كإجابة جديدة وقوية على السؤال القديم حول ماهية الأمة». ومع ذلك، إذا اعتبر المرء هذه الإجابة الجديدة والقوية، ردا على سؤال جديد حول ماهية الأمة، على سبيل المثال، شعور جماهيري بدلا من خطاب النخبة، فقد يتطلب هذا السؤال إجابة مختلفة تماما. قد يخفي استمرار كلمة «أمّة» انقطاعا في المعنى. أيا كان التفسير الذي يبنيه المرء المركّز على الصعيد الوطني، والمقارن، والنظري. فإن إقامة روابط بين الأمّة والقومية يتطلب تحليلًا مفاهيميا بالإضافة إلى السرد التاريخي.

الجزء الأول من الكتاب بعنوان «الأمّة قبل القومية». يلخص الفصل الأول مفاهيم ما قبل عام ١٧٠٠ لألمانيا كإقليم؛ ويناقش الثاني مفاهيم الألمان كأمّة؛ والثالث يفحص ألمانيا كمكان تحدث فيه الأشياء للألمان. هذا مخطط متماسك بشكل جيد: الأمة كمكان، والناس، والخبرة.

يقدم الفصل الأول بحثا رائعا وأصليا على خرائط ألمانيا منذ حوالي عام ١٣٠٠. وقد تم رسم أول خريطة لـ «جرمانيا»

يعتبرها سميث خريطة إيبستورف حوالي عام ١٣٠٠. وهي تربط الإقليم بالناس. على نسخة واحدة موجودة مكتوب عليها «نهر الراين يقسم الغالبكان والألمان». يتتبع سميث وضع هذه الخرائط. وهم ينتقلون من «قائمة على خط سير الرحلة» (الطرق بين المدن ذات أوقات السفر المقدرة)، إلى خرائط مرسومة بمقياس، وتصور مساحات معينة، وخاصة مناظر المدينة. أصبحت أكثر تفصيلا، ومع بداية الطباعة، أصبحت عديدة ومتداولة على نطاق واسع. من المشكوك فيه ما إذا كان العديد من الفلاحين أو العمال قد «رأوا ألمانيا»، لكن مثل هذه الخرائط شكلت جزءا من الأثاث العقلي للنخب، مثل الباحثين الإنسانيين في القرن السادس عشر، الذين غالبا ما كان يُنظر إليهم على أنهم قوميون في وقت مُبكّر. بحلول عام ١٧٠٠، كانت الخرائط تكتسب وظائف مثل تجميع المعلومات عن السكان، والموارد الاقتصادية، وترسيم الحدود بدقة لتمكين المطالبات الإقليمية من قبل الدول.

يبدأ الفصل الثاني بمفاهيم لغوية وعِرْقية عن «الألمان». النص الرئيسي هو جرمانيا تاسيتوس، المكتوب في روما حوالي ١٠٠ بعد الميلاد. لم يتم تداوله في شكل مخطوطة في فترة العصور الوسطى، على عكس أعمال الكتاب الرومان الآخرين، ولكن تم اكتشافه في القرن الخامس عشر، وسرعان ما أصبح متاحا في الطباعة. أيضا مع ظهور الطباعة، اكتسبت ألمانيا نموذجا مكتوبا قياسيا تأسس على كتابات وترجمات الكتاب المقدس لمارتن لوثر، كجزء من الدافع البروتستانتي لجعل كلمة الله في متناول الألمان «العاديين». أطلق هذا هجوما دعائيا وسياسيا مضادا من الكنيسة الكاثوليكية، والأمراء الكاثوليك، حتى لو تراجعوا عن الترجمات المحلية للكتاب المقدس.

يفحص الفصل الثالث، الصور الأدبية والمرئية للمعاناة الألمانية خلال حرب الثلاثين عاما. كما يقدم الموضوعان الآخران. طاردت الحرب الأراضي الألمانية، حيث قاتل كل من الألمان وغير الألمان. تعرض العديد من الروايات الألمان «العاديين» كضحايا، وتصور «بشكل واقعي» تأثير الحرب عليهم.

استنتج سميث أنه بحلول عام ١٦٠٠، كانت هناك أمّة ألمانية تمثل المكان والشعب واللغة والخبرة المشتركة. يقر بأن هذه التمثيلات ليس لها معنى سياسي. تم تقسيم «جرمانيا» إلى العديد من الأنظمة السياسية، وانضم العديد منها إلى الأراضي غير الألمانية، وحكمها أمراء غير ألمان. تفتقر حدود الدولة إلى الدقة أو الأهمية التي تتمتع بها الدول الإقليمية ذات السيادة اللاحقة. أهم هوية واسعة النطاق، وهي الهوية المسيحية، قسمت الألمان بعنف.

هذه حجة مقنعة لكنها تحتاج إلى تمحيص مفاهيمي. «الأمّة» هنا هي خطاب النخبة، وكما يلاحظ سميث، نشأ هذا الخطاب مع أواخر الجمهورية الرومانية. تم تشكيل المنظور الروماني «الإثنوغرافي» بدوره من خلال وجهات النظر اليونانية الكلاسيكية. هذه هي وجهة نظر النخب الإمبراطورية

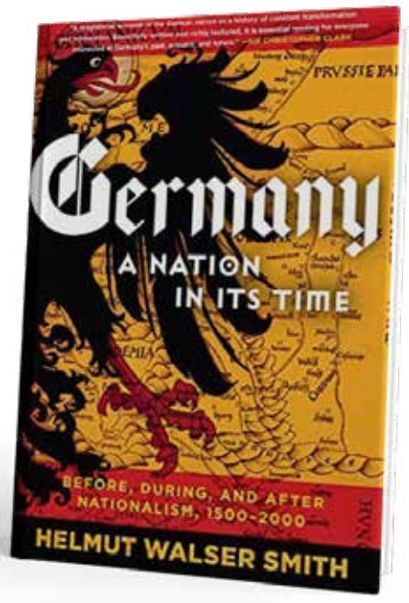

الحضرية، التي تواجه أطرافا غير حضرية يسكنها البرابرة، الذين تجب السيطرة عليهم أو حمايتهم. النخب «المتحضرة»، المدركة لترتيباتها الاجتماعية والسياسية المعقدة، تتخيل البرابرة كقبائل: مجموعات بسيطة، تنظمها القرابة والثقافة المشتركة. مع قيام روما ببناء إمبراطورية، قام جنودها وسياسيوها وكُتابها (غالبا ما تكون أدوارهم مجتمعة، أي يوليوس قيصر) بإسقاط الصور النمطية العِرْقية على أماكن معينة، والتي تشكلت من خلال كيفية استجابة البرابرة للإمبريالية.

أصبحت هذه الاستجابات، والاستجابات المضادة معقدة ومترابطة بشكل متزايد، مما أتاح نقدا للفساد الملحوظ والانحدار الأخلاقي للرومان. تعلم القادة «الألمان» من الرومان. «هيرمان الألماني»، الذي قضت قواته على الفيلق الروماني في التاسع بعد الميلاد، كان يُعرف آنذاك باسم أرمينيوس، بعد أن خدم كضابط روماني. ربما كانت الصورة النمطية عن البربري الألماني تاسيتوس ذو الشعر الأحمر والأزرق العينين قد عفا عليها الزمن في عصره، حتى لو افترضت أنها كانت صالحة في وقت سابق. تم رسم العديد من صوره من روايات قيصر السابقة عن بلاد الغال. قسم تاسيتوس الألمان إلى أجزاء فرعية، وربطهم بمنطقة معينة، وبعض طبعات جرمانيا تتضمن خرائط على أساس هذه الحسابات الشفهية.

كانت ممارسات التسمية هذه منتشرة على نطاق واسع في أواخر العصور الوسطى: فرنسا، جرمانيا، إيطاليا، وتقسيمات فرعية مثل ساكسونيا وبافاريا. ارتبط اسم مؤسسي واحد، وهو اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بفرانكس / فرانسيا. (اسم «فرانكس» سافر شرقا، يستخدم للدلالة على الغزاة «الغربيين»). أضيفت عبارة «الأمة الألمانية» فيما بعد. هذه الإمبراطورية، القائمة على ملكية الأراضي اللامركزية والمتميزة والكنيسة الكاثوليكية، كان لها الاسم المشترك فقط مع الإمبراطورية الرومانية. ومع ذلك، فقد منح العنوان بمكوناته الثلاثة مكانة كبيرة.

الجزء الثاني بعنوان "The Copernican Turn"، وهي عبارة مثيرة للاهتمام. يمكن للمرء أن يفهم فقط نيكولاس كوبرنيكوس من خلال رفضه لوجهة النظر السائدة المتمحورة حول الأرض للنظام الشمسي. ومع ذلك، هذا لا يساعدنا على فهم عمله. والمهم ليس فقط عدم الاستمرارية بين الرأيين، ولكن أيضا الأساليب والمفاهيم التي تقوم عليها. ما يهم هو التدمير الكوبرنيكي لوجهة النظر المتمحورة حول الأرض.

حدد سميث تاريخا حول كيفية نشوء فكرة «ألمانيا» و«الألمانية». كيف تم تشكيل هذا من قبل الأقليات في القومية من أواخر القرن الثامن عشر؛ كيف أصبحت هذه القومية راديكالية وعرقية، وهيمنتها بشكل متزايد في عصر الحروب العالمية؛ وكيف واجه الألمان منذ عام ١٩٤٥ تلك القومية ورفضوها. تبدأ انتقاداتنا بغياب تعريفات صريحة للمصطلحات الرئيسية؛ لأن هذا كان سيجعل من السهل رؤية ما هو، وما لا يؤخذ في الاعتبار. أعتقد أن هناك مشاكل تتعلق بربط خطاب النخبة الحديث المبكر عن ألمانيا كمكان للحس الحديث، والواسع والشعبي المتأخر عن الألمان كشعب، فضلا عن التحول من القومية كفكرة أقلية، إلى القومية باعتبارها عرقية قومية راديكالية. كنا سنكون معجبين أكثر بشي ما على المستوى القومي باعتباره جانبا من جوانب الثقافة السياسية، خاصة فيما يتعلق بما قد يعتبره المرء تقليدا فيدراليا. أخيرا، كنت أرغب في منظور متزامن يظهر أن الأمة والقومية الألمانية تتشكل بعمق من خلال الأحداث والأفكار خارج ألمانيا.

ومع ذلك، فقد تناول سميث موضوعا ضخما، ومن المستحيل تماما على مؤرخ واحد، ناهيك عن كتاب واحد، أن يروي القصة كاملة. في المجالات التي يفضلها سميث، يقدم من خلال ذلك تفاصيل فريدة ورؤى ثاقبة. إن البحث والتحليل لرسم الخرائط مثيران للإعجاب، كما أن معالجة الأنواع الأدبية والمرئية، مثل الشعر والروايات وروايات السفر واللوحات، المستندة إلى حجة أورباخ المتعلقة بتوسيع التعاطف الواقعي، رائعة ومنيرة. هذا كتاب طموح، مكتوب بشكل جميل حول موضوع ضخم ومعقد للأمة والقومية الألمانية.

اسم الكتاب: ألمانيا: أمّة في وقتها قبل القومية وأثناءها وبعدها 1500-2000

المؤلف: هيلموت والسر سميث

دار النشر: ليفرايت للنشر والتوزيع

سنة النشر: 2021

اللغة: الإنجليزية

عدد الصفحات: 608 صفحة

* كاتب عُماني

فاكسرس: القصة من الداخل لتطعيم أكسفورد-أسترازينيكا، والسباق ضد فيروس كوفيد

سارة جيلبرت وكاثرين جرين

طلال اليزيدي *

في 1 يناير 2020، قرأت سارة جيلبرت Sarah Gilbert أستاذة في علم اللقاحات بجامعة أكسفورد، مقالاً عن أربعة أشخاص في الصين يعانون من التهاب رئوي غريب. في غضون أسبوعين صممت هي وفريقها تطعيمًا ضد جرثومة مسببة لمرض جديد لم يشهده العالم من قبل. بعد أقل من 12 شهرًا تم نشر التطعيم في جميع أنحاء العالم لإنقاذ ملايين الأرواح من فيروس كوفيد-١٩ Covid-19.

كتبت سارة قصتها في كتاب عُنْون بمصطلح جديد «فاكسرس» Vaxxers مصطلح يطلق على الناس المؤمنين بضرورة تعاطي التحصينات الطبية. في كتاب فاكسرس نسمع مباشرة من الأستاذة سارة جيلبرت وزميلتها الدكتورة كاثرين چريين Catherine Green وهما يكشفان عن القصة الداخلية لصنع لقاح أوكسفورد-أسترازنيكا Oxford-AstraZeneca والعمل الجاد وراء ذلك. في الكتاب تعرضان قصتهما في محاربة الجائحة مثل الناس العاديين في ظروف استثنائية ملتزميتن بالاحترازات الصحية وتتشاركان اللحظات المؤلمة في علاج عاصفة الجائحة. يدحض الكتاب الحقائق الزائفة عن التحصينات الطبية ويفصل الحقيقة عن الخيال؛ يشرح كيف صنعت الطبيبتان تطعيمًا عالي الفعالية في وقت قياسي مع مراقبة أعين العالم ليقدما أملا في المستقبل. يدعونا كتاب فاكسرس إلى المختبرات الطبية لاستعراض كيف يمكن للعلم أن ينقذنا من هذا الوباء، وكيف يمكننا الاستعداد للجائحة التالية التي لا مفر منها.

الموضوع:

قليل من الناس في فترة تفشي وباء كوفيد-١٩ عاش حياة عمل أكثر اشتغالًا وكثافة في العمل من السيدة سارة جيلبرت وكاثرين جرين، العضوين الرئيسين في الفريق العلمي بجامعة أكسفورد اللتين طورتا تطعيمًا للعالم مع شركة صناعة الأدوية استرازينيكا AstraZeneca. ومن اللافت للنظر أنهما وجدتا وقتًا لكتابة كتاب عن رحلتهما في اكتشاف التطعيم على الرغم من عبء العمل الرسمي الهائل عليهما. يجب أن نكون ممتنين لهما على بذل هذا الجهد الإضافي المتمثل في كتاب يسرد القصة خلف اكتشاف التطعيم. يعد كتاب فاكسرس سردًا ممتازًا ومقروءًا لعامة القراء عن الحياة في معامل البيولوجيا حيث لا يصف فقط بحث التطعيم نفسه، ولكن أيضًا قضايا أخرى تنطبق على البحث العلمي بشكلٍ عام مثل الحصول على إمدادات للمواد والمعدات المخبرية ونشر النتائج، هذه القضايا الملازمة للبحث العلمي تجلت بالتحديد خلال فترة الوباء. كتبت المؤلفتان فصولًا متناوبة في الكتاب، متخذتين نهجًا زمنيًا واسع النطاق من يوم رأس السنة الجديدة ٢٠٢٠، عندما سمعت سارة جيلبرت عن الحالات الأولى لتفشي التهاب رئوي غامض في ووهان بالصين، حتى ربيع عام ٢٠٢١. مع ربيع العام الجديد، تم إعطاء تطعيم أكسفورد-أسترازينيكا لمئات الملايين من الناس في جميع أنحاء العالم وأنقذ أرواح عدة آلاف من الأشخاص من خلال الوقاية من كوفيد-١٩ القاتل. رغم إنجازهما تورطتا في الجدل حول مدى توفره وفعاليته وآثاره الجانبية.

الدافع الملهم للمؤلفتين في كتابة (فاكسرس) هو طمأنة الأشخاص المترددين بشأن التطعيم بأن فوائده تتفوق بكثير على مخاطره، وأن البرنامج المتسارع لتطوير تطعيم لكوفيد-١٩ لم يقطع الزوايا ولم يختصر العملية القانونية لتصنيع التطعيمات، والتطعيم هذا لا يعرض السلامة الصحية للخطر. تفتتح كاثرين جرين الكتاب بوصف لقاء في أغسطس الماضي جمعها صدفة مع إحدى المتشككات من النساء بنجاعة التطعيم بجوار عربة بيتزا خلال عطلة في سنودونيا، مقاطعة جبلية في شمال ويلز. تقول المرأة المتشككة على طريقة سرد كاثرين «أشعر بالقلق لأننا لا نعرف ما الذي يضعونه في هذه التطعيمات من الزئبق والمواد الكيميائية السامة الأخرى». «أنا لا أثق بهم » قالت المرأة لكاثرين. ردًا على ذلك، في الكتاب وصفت كاثرين جرين بالضبط كيف صنع فريق أكسفورد التطعيم بما في ذلك قائمة كاملة من المكونات الرئيسية في التطعيم (بدون الزئبق). كتبت جرين أن تلك اللحظة كانت مفصلية دفعتها لكتابة كتاب (فاكسرس)، وعلمت بعد تلك اللحظة أنها بحاجة إلى الخروج من المختبرات الطبية وشرح تفاصيل التطعيم. كتبت جرين عن الفائدة المنعكسة من تعاطي التطعيم: «لم تتم كتابة النهاية بعد للجائحة لكننا قطعنا شوطًا طويلاً نحو التغلب على هذا الفيروس، وأود أن يعرف الناس كيف وصلنا حقًا إلى هنا وماذا سيحدث بعد ذلك، كيف نخرج من هذه الفوضى وكيف نستعد للفيروس التالي الذي لا مفر منه». أوضحت جيلبرت وجرين أن السرعة في إنتاج التطعيم توفرت بفعل نظام صممه فريق البحث بجامعة أكسفورد يمكن تكييفه لتوفير الحماية ضد الفيروسات المختلفة قبل ظهور كوفيد. هذا النظام تمكن من إنتاج تطعيمات فعالة ضد الإيبولا والالتهاب الرئوي الحاد الشرق أوسطي ويمكن تكييفه بسرعة لتصميم تطعيم للفيروس المسؤول عن كوفيد.

النظام عبارة عن فيروس غدّي adenovirus لا علاقة له بالفيروس التاجي coronavirus المسؤول عن كوفيد، الفيروس الغدّي يسبب أعراضًا خفيفة شبيهة بالبرد في الشمبانزي، ولكنه لا يصيب الناس عادةً. تم تعديل هذا الفيروس وراثيا لمنع تكاثره في جسم الإنسان. أضيف إلى هذا النظام المتعدد الأغراض المكون أساسيًا من فيروس غدّي معدل

وراثيًا مجموعة من الجينات التي ترشد الخلايا لصنع أي بروتينات معادية التي بدورها تثير الجهاز المناعي البشري لتوليد أفضل استجابة وقائية. عند استخدام هذا النظام لصنع تطعيم لكوفيد أضيف إلى الفيروس الغدي المعدل وراثيًا جينات «البروتينات الشائكة» التي يستخدمها الفيروس لدخول الخلايا البشرية. فالتطعيم لا يحتوي على فيروس كوفيد بل أجزاء رئيسة من بروتينات كوفيد تساعد جهاز المناعة على تكوين حصانة ضد العدوى بالفيروس. على الرغم من أن العديد من غير العلماء الذين تابعوا أخبار كوفيد خلال فترة الوباء كانوا على دراية بنظام إنتاج التطعيم على نطاق واسع، فإن كتاب (فاكسرس) يضيف المزيد من المعلومات التي من شأنها إثراء القراء من العامة غير العلماء الذين يرغبون في معرفة المزيد؛ فلم يتم شرح إنتاج اللقاح بشكل أكثر وضوحًا من كتاب (فاكسرس).

الكتاب ناقش تقنية بيولوجية دقيقة في ترجمة ال DNA إلى بروتين تعرف «بتحسين شفرة الكودون». تقرأ الشفرة الجينية الأحرف الأربعة (A وC وG وT) من الحمض النووي في مجموعات من ثلاثة (كودون) لتكوين ٢٠ من الأحماض الأمينية التي تشكل اللبنات الأساسية لبناء البروتينات. لكن الغزارة في الكود يوفر إرشادات بديلة لمعظم الأحماض الأمينية. على سبيل المثال، الكود المشفر إلى الحمض الأميني ليسين هو AAA أو AAG. استفاد فريق أكسفورد من ذلك لإعادة كتابة جينات فيروس كوفيد الأصلية بكودات ثلاثية مختلفة تصنع نفس البروتينات، ولكن بطريقة مُحسّنة لإنتاج كميات أكبر داخل الخلايا البشرية، وبالتالي إعطاء كل جرعة من اللقاح تأثيرًا أكبر.

بحلول نهاية يناير ٢٠٢٠، قبل وقت طويل من إعلان منظمة الصحة العالمية عن انتشار جائحة كوفيد قرر الفريق تعليق جميع الأعمال الأخرى تقريبًا وتطوير تطعيم لكوفيد بتنفيذ إجراءات تطوير التطعيم بطريقة متوازية يتم إجراؤها عادةً بشكل متتال، والانتقال إلى المرحلة التالية قبل اكتمال جميع الاختبارات في المرحلة السابقة؛ لتسهيل الإجراءات المتعلقة بإنتاج التطعيم. علقت جرين على إجراءات تطوير التطعيم السريعة «إن الخطر في عملية إنتاج التطعيم ليست المنتج النهائي، أو اللقاح نفسه، لكن

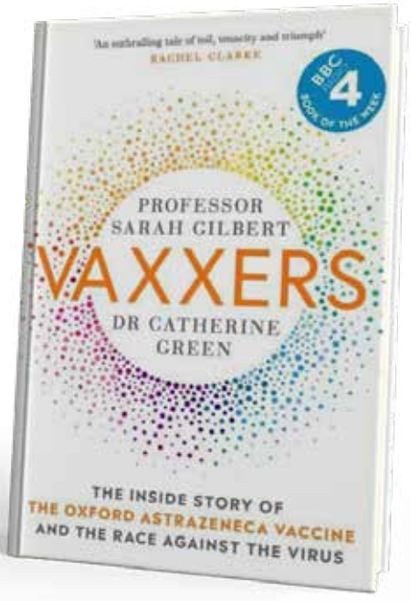

الخطر الحقيقي في إهدار وقتنا وجهدنا وأموالنا في حالة استمرار الجائحة». وقالت ردًا على شكوك معاكسة في ظهور التطعيم متأخرًا عن المهلة المرجوة «الدفعة الأولى من التطعيم كانت جاهزة كما كنا نأمل بحلول ١٧ مارس وكان اللقاح جاهزًا للتجارب السريرية بحلول ٢٢ أبريل، أي قبل وقت طويل مما كنا نأمله في الأصل».

تظهر المؤلفتان القليل من المودة لوسائل الإعلام؛ كتبتا بصريح العبارة في كتابهما أن وسائل الإعلام كانت تطارد فريق بحث أكسفورد بحثًا عن إجابات. كتبت جيلبرت عن تجربتها مع وسائل الإعلام في أواخر عام ٢٠٢٠: «لقد سئمت جدًا من التحدث إلى وسائل الإعلام بلا نهاية، وكان علي دائمًا أن أكون الشخص البالغ في كل مقابلة» كانت سارة جيلبرت، بصفتها أستاذًا في علم اللقاحات وقائدة علمية لبرنامج لقاح أكسفورد دائمًا في دائرة الضوء الإعلامي أكثر من كاثرين جرين المسؤولة عن التصنيع. أكدت المقالات العديدة حول رغبة سارة القوية في حماية خصوصياتها الشخصية على الرغم من تمادي وسائل الإعلام. يستمر موقف سارة في الخصوصية خلال كتاب (فاكسرس)، على الرغم من ظهور المزيد في ثنايا الكتاب حول حياة سارة جيلبرت المنزلية مع شريكها طويل الأمد روب وأبناء في سن المدرسة. في الكتاب تندب سارة جيلبرت الطريقة التي يحرمها عبء العمل المكثف من وقت عائلتها، وكتبت كاثرين جرين بشكل مؤثر عن التقاطع الصعب بين العمل والحياة المنزلية بصفتها الأم الوحيدة لابنتها إيلي البالغة من العمر تسع سنوات، ووصفت مشاعرها العرضية عن عبء العمل.

الكتاب حتميًا كتب بطريقة انتقائية لجهود فريق بحث جامعة أكسفورد. وأكثر ما يؤسف له هو إغفال الكتاب لزاوية التعاملات والتسويات المالية مع شركة الإنتاج استرازينيكا. فهناك القليل من النقاش في ثنايا الكتاب عن التعاملات مع استرازانيكا ومجموعة من الشركات الأصغر العاملة في تسويق التطعيم؛ فيجب أن تكون سارة جيلبرت على علم بهذه الترتيبات. وهي أحد مؤسسي شركة فاكسيتك Vaccitech، وهي الشركة التابعة لجامعة أوكسفورد التي رخصت الملكية الفكرية وراء «تطعيم أكسفورد». وفقًا لتقرير مع لجنة الأوراق المالية والبورصة الأمريكية قبل إدراج الشركة في بورصة ناسداك Nasdaq في عام ٢٠٢١، كانت سارة جيلبرت مديرا غير تنفيذي للشركة حتى سبتمبر الماضي. على الرغم من منصب سارة أحد كتاب الكتاب في شركة vaccitech إلا أنها تلقت إشارات عابرة في الكتاب. لا يوجد ذكر أيضا للعديد من الأشخاص الذين لعبوا أدوارًا رئيسية في طرح التطعيم، بما في ذلك جون بيل John Bell (أستاذ الطب في جامعة أكسفورد) الذي لعب دورًا بارزًا في إنتاج التطعيم، وكيت بكنغهام Kate Bingham (رئيس فريق عمل اللقاحات التابع للحكومة البريطانية) وميني بانغالوس Mene Pangalos (رئيس أبحاث المستحضرات الصيدلانية الحيوية في استرازانيكا).

على الرغم مما ينقص الكتاب إلا أن القصة المتضمنة في الكتاب جيدة جدًا لدرجة أن الكتاب سيُقرأ لفترة طويلة بعد انتهاء الوباء، باعتباره سردًا حيًا لبحث في طور التنفيذ والطريقة التي يستجيب بها الأفراد في مواجهة الطوارئ العلمية.

الكتاب: فاكسرس: القصة من الداخل لتطعيم أكسفورد-أسترازينيكا، والسباق ضد فيروس كوفيد

المؤلف: سارة جيلبرت وكاثرين جرين

الناشر: Hodder & Stoughton

سنة النشر: 8 يوليو 2021

لغة النشر: الإنجليزي

* كاتب عُماني

الحرب الأوكرانية: الجانب المخفي من الأوراق

غبريال بانون

محمد حركات *

غبريال بانون باحث فرنسي حاصل على إجازة في الحقوق وعلى دبلوم في الهندسة المدنية. هو رجل أعمال وباحث في الدراسات الجيو استراتيجية ومستشار لعدة رؤساء دول. تقلد عدة مهام قيادية واستشارية لمجموعة من المصانع الاستثمارية والنووية في أوروبا وأمريكا. وفي 1993 نودي عليه من طرف الرئيس ياسر عرفات لتولي منصب كبير المستشارين الاقتصاديين. كما عمل عام 2005، مستشارًا لمجلس الأمن الاقتصادي للاتحاد الروسي. وفي عام 2019، عرف بانتقاده الشديد لوزيرة المساواة الاجتماعية الإسرائيلية، جيلا جمليئيل التي طلبت من سبع دول عربية مبلغ 250 مليار دولار، كتعويض عن طرد اليهود منها. صدر للباحث عدة أعمال علمية وأدبية منها :الجيوسياسي والحوكمة، 2022،مفاتيح الجغرافيا السياسية،2018، البحث عبثا، بعد ستين عاما، 2016.

وفي كتابه الجديد، موضوع المراجعة، يقدم لنا غبريال بانون تحليلاً دقيقا وبدون هوادة لخصوصيات وعموميات الحرب في أوكرانيا. بعيدًا عن المسار المطروق، والذي يراه غير صحيح سياسيًا بحكم معارضته للحقائق التاريخية المطروحة والتي لا تخلو من المغالطة.

والواقع، لقد دفعت الحرب المواطن العادي لتساؤل عن الأسباب الحقيقية التي أدت بأوروبا إلى خوض حرب كان من الممكن تفاديها. لذلك جاء هذا الكتاب ليلقي ضوءًا مختلفًا على ذلك الذي نقلته حتى الآن غالبية وسائل الإعلام، بفعل تفوقه في طرح النزاع في كل أبعاده التاريخية والجيوسياسية والإعلامية والاقتصادية والدولية المتشابكة. ومن مميزات هذا المؤلف طرحه للنقاش لموضوع شائك ومعقد وذي راهنية خاصة اعتباره أن الحرب الأوكرانية هي حرب جاءت لتؤسس لقيام نظام ثنائي جديد تتمثل زعامته في أمريكا والصين، وضمنه تريد روسيا أن تقول كلمة الفصل فيه؛ لتظل الحرب إعلامية بامتياز و«الحرب خدعة «كما يقال. لذلك يدعو الكاتب إلى توخي درجة عالية من الحيطة والحذر في مقاربة الموضوع من خلال تبني الموضوعية والعلمية والحياد اللازمين في البحث والتنقيب حول الأسباب الجوهرية لهذه الحرب المشتعلة اليوم، وذلك بناء على امتياز توفر الكاتب على وثائق ثمينة وتحاليل مختلفة قد لا يكون ولوجها سهلا بالنسبة لملاحظين آخرين. ولقد أقر «أنه ليس روسيًا ولا أوكرانيًا، إنه فقط عالم جيوسياسي يدرس الحقائق والوقائع فقط، إنه يمنع عن نفسه أن يكون مؤيدًا أو مدافعاً عن قضية ما. غير أنه يرفض بشدة أن يتم التلاعب به».

ومما لاشك فيه أن تداعيات حرب أوكرانيا، وما تحمله من تبعات جيوسياسيّة واقتصادية مركبة، بدأت تضرب مَفاصل منظومة الإنتاج العالمية التي أصبحت تتميز بالركود التضخمي، الموسوم بارتفاع نسبة العطالة، والتضخم وهبوط الإنتاج، الشيء الذي نتج عنه تعميق البؤس الاقتصادي وارتفاع شدّة مُعاناة الناس، في وقت يُواجه فيه الاقتصاد العالَمي أكبر اختبار له منذ الحرب العالَميّة الثانية بسبب مخلفات وباء «كوفيد-١٩» وتداعيات الحرب الروسية الأوكرانية والمتمثلة في ارتفاع أسعار الغذاء والطّاقة، وتشديد الأوضاع الماليّة وتعطيل سلاسل التوريد وخَطَر المناخ، إضافة إلى تصاعُد التوتّرات والتي قد لا تقف في أوكرانيا بل قد تمتد إلى دول إسكندنافية جديدة عبرت عن رغبتها للانتماء إلى حلف الناتو مثل فنلندا والسويد، فضلا عن التوترات الكبرى التي أصبحت تعرفها جيوسياسة البحور والمحيطات باعتبارها تشمل ٩٠٪ من المبادلات الدولية. وعليه تم تصنيف البحر الأسود منطقةً عالية المخاطر، مما أدّى إلى رفْع أقساط التأمين المطلوبة لشحْن البضائع، وارتفاع كلفة النقل واللوجستية وتأخُّر الشحنات، وازدحام الموانئ.

الواقع، تكتسي الحربُ الروسيّة الأوكرانيّة تداعيات سلبيّة مركبة على الاقتصاد العالَمي برمته لاسيما على البلدان الأقل نموا والتي لا تتوافر على سيادة غذائية؛ حيث أعرب رئيس الاتحاد الإفريقي ماكي سال عن قلقه عند زيارته لروسيا والتقائه بالرئيس بوتين، محذرا من المجاعة، ومناشدته لحل الأزمة لكي لا تصبح إفريقيا ضحية هذه الحرب، ونصف دولها تعتمد على روسيا وأوكرانيا في استيراد القمح في ظل أزمة غذائية عالمية متوقعة، ويُرتقب أن تتفاقَم الوضعية أكثر فأكثر، مع «احتمال طول فترة الحرب وتوسيع نطاقها، وتشديد العقوبات على موسكو، وقيام هذه الأخيرة بفرْض عقوبات مُضادّة على الغرب، حيث يتكلم المحللون اليوم عن ميلاد «حرب اقتصاديّة عالمية» .

ولعلّ أكبر هذه العقوبات وأكثرها تأثيراً، تجميد جزء كبير من حسابات روسيا الخارجيّة البالغة نحو ٦٤٠ مليار دولار. أمّا موسكو فقد ردّت بعقوبات تضمَّنت قائمةَ مَنْع طويلة، شمَلت أساسا بَيع وقودها بالروبل بعيداً عن العملة الأمريكيّة، وهي خطوة تهدف إلى إزاحة هيمنة الدولار عن «عَرش الطّاقة والمعاملات الدولية»، الشيء الذي نتج عنه، حسب بعض التقديرات، تحقيق روسيا عائدات بلغت نحو ٩٣ مليار دولار من صادرات الطّاقة الأحفوريّة، خلال الـ ١٠٠ يوم الأولى من الحرب.

لذلك يرى الكاتب أن روسيا قد تستهزئ أو لا تعبأ بالعقوبات المفروضة عليها من طرف الغرب مادامت تستفيد من تضامن وصلابة الشعب الروسي وفضائل الشراكة مع الصين و«مجموعة بريكس»،بشكل عام . غير أن الخاسر الأكبر في هذه الحرب يظل هو الشعب الأوكراني الذي أصبح لعبة في أيدي الكبار (تدمير البنية التحتية والصناعة، فقدان الزراعة، الاستيلاء على احتياطيات الفحم من لدن الانفصاليين، تقسيم البلد). كما أن دخول أوكرانيا في ظل هذه الظروف إلى حلف الناتو يبقى غير مضمون، ووعود الاندماج في الاتحاد الأوروبي لهذا البلد المتنازع عليه ليست ليوم غد.

وهناك أربع خلاصات وحقائق أساسية يمكن جنيها والوقوف عليها في هذا المؤلف: أولا، الطرح البيداغوجي المنهجي التاريخي والتركيبي الدقيق الذي سلكه الكاتب في تسهيل فهم ما يجري وتفسير رقعة الشطرنج الجيوسياسية. فهو يرى أن البلد حديث النشأة وأنه كان دائما ضحية الأطماع الخارجية، خاصة من لدن جيرانه : اليابان، الرومان،الروس، السويد أو الأتراك والمغول في القرون السابقة، اعتبارا لوضعه الاستراتيجي المتميز، مبرزا أن هذا البلد لم يحصل على استقلاله إلا عند انهيار الاتحاد السوفياتي، وهو يوجد اليوم تحت نيران الحرب مقسما مابين الموالين للاتحاد الأوروبي والمتواجدين بغرب البلاد الراغبين في الانتماء إلى حلف الناتو وسكان الشرق الموالين لروسيا.

لقد قام الكاتب بدقة ببسط عدة محطات تاريخية تميز هذا البلد من ١٦٥٤ إلى ١٩٥٤ .غير أن عام ١٩٩١ يعد حدثا مفصليا في تاريخ أوكرانيا في بناء بلد مستقل يتمتع بسيادته الكاملة ضمن حدوده الترابية وبروز الأحزاب الوطنية الأوكرانية التي كانت ترى في روسيا مصدر كل المساوئ في أوكرانيا. غير أن مختلف الحكومات المتتالية كانت تتأرجح دائماً ما بين توجه موالٍ لروسيا وآخر موالٍ للغرب، وما يثيره هذا الأخير من تهديدات خارجية، وهو ما ترفضه موسكو رغم أنه ليس السبب الحقيقي في اندلاع الغزو. لذا ينبغي البحث في الأسباب الخفية في النزاع والمتمثلة في التراث التاريخي

الذي ما زال يغذي رؤية روسيا ومهدها في حوض كييف.

كانت إرادة أوكرانيا تتجلى في الرغبة لتكون صلة وصل بين الاتحاد الأوروبي وروسيا، وبالتالي تستفيد من امتيازات اتفاقيات التبادل المبرمة بين الاثنين، غير أنه كان من اللازم لأوكرانيا الاختيار سواء بين الاتحاد الأوروبي أو روسيا (العمق الاستراتيجي للاتحاد الاقتصادي الأوراسيوي). لا ينبغي استصغار الدور المركزي لهذا الحدث لمعرفة ما يجري اليوم بأوكرانيا. ويلاحظ الكاتب بصفة خاصة أنَّ الثورة الشعبية اندلعت في نوفمبر ٢٠١٣ عندما رفض النظام السلطوي الحاكم توقيع اتفاق الشراكة مع الاتحاد الأوروبي لفائدة إبرام ذلك مع روسيا؛ حيث تم قمع التظاهرة الشعبية وأدى ذلك إلى مغادرة الرئيس فكتور اينكوفيتش الموالي لروسيا للبلاد. وهو العامل الجوهري الذي كان وراء حرب دونباس وضم القرم، حيث إنه لو لم يتم عزل الرئيس اينكوفيتش لما قامت روسيا بغزو أوكرانيا. لذا فإن هذه الحلقة مركزية ولعبة القوى الغربية هي الحاسمة. والمنطق يكمن،حسب الكاتب، في منظور استعادة إمبراطورية روسيا ماضيها التليد، والحنين إلى زمن العظمة، ولقد نجم عن إلغاء اتفاقية الشراكة تنظيم مجموعة من المظاهرات والاحتجاجات المتتالية في مختلف مناطق البلاد بين معارض ومؤيد، تميزت بالمشاركة الفعلية لبعض ممثلي الاتحاد الأوروبي والسيناتور الأمريكي في الاستعراض. وخوفاً على حياته اضطر الرئيس فكتور اينكوفيتش للجوء إلى روسيا عندما اشتد وطيس إطلاق النار على المتظاهرين ورجال الأمن في ساحة «ميدان» من طرف بلطجية تأكد بعد ذلك أنهم مرتزقة جورجيون نجم عنه خسائر في الأرواح، حسب تقارير وسائل الإعلام، بتحريض من الولايات المتحدة الأمريكية مقابل صرف مليارات الدولارات لفائدتهم. والغرض كان يكمن في زعزعة الاستقرار في أوكرانيا من أجل إضعاف روسيا وحرمانها من مخزون الحبوب الخاص بها، ومن فحم نهر دونباس وجزء من صناعة الطيران بها، لتكون أمريكا، كما يخلص الكاتب، قد نجحت أخيرًا في هذا التنفيذ بعد ٢٥ عامًا من سقوط الاتحاد السوفيتي.

ثانيا، البعد الجيوسياسي لأزمة أوكرانيا والمتمثل في عنصرين جوهريين: من جهة هناك قيام الولايات المتحدة بنشر بيادق حلف الناتو في الحدود الروسية المحاذية لبلدان البلطيق وبولونيا ورومانيا، رغم التعهدات الشفوية التي قدمت لكوربتشيف، والقاضية بعدم ضم هنغاريا وبولونيا وجمهورية التشيك وباقي البلدان الشرقية إلى حظيرة الناتو . إن السياسة الأمريكية الحالية المتمثلة في التنكر وإدانة الاتفاقيات والتدخل العسكري أو الاقتصادي بأي ثمن، كما يؤكد الكاتب، قد أعادت إلى الساحة الدولية روسيا وهي أكثر قوة اقتصاديًا وعسكريا؛ حيث سمحت الحرب وظروف النزاع مع الغرب لموسكو من بناء قدرات نووية وإتقان وتطوير تقنيات تكنولوجية جديدة في مجال التسلح، مثل الصاروخ الأسرع من الصوت، الذي يستحيل اعتراضه.

كما تمت تقوية علاقاتها مع «مجموعة بريكس» وإنشاء بنك التنمية الجديد كبديل للبنك الدولي وتحييد المُعاملة بالدولار الأمريكي. أما العنصر الثاني فهو يتجلى في فشل السياسة الأمريكية في أوكرانيا والتي تميزت بانقسام بلدان الاتحاد الأوروبي بشأن رفع العقوبات الاقتصادية المفروضة على روسيا. كما أن شيطنة روسيا جعلت حلف الناتو يحرص على التمدد في الشرق ويدفع بلدان الاتحاد الأوروبي إلى رفع ميزانية الدفاع بها، الشيء الذي نجم عنه توسيع السوق والطلب على الأسلحة الأمريكية وتأجيل اندماج الدول الشرقية ضمن الاتحاد الأوروبي، فضلاً عن خفض التبادل التجاري بين البلدان الأوروبية وروسيا. ويتساءل الكاتب هل اندماج أوكرانيا في الاتحاد الأوروبي هو أصلا كان من أجل الاستفادة من إعانات وقروض الاتحاد؟ وهل مشروع اندماج أوكرانيا في الاتحاد التابع للولايات المتحدة سيكون لصالح الاتحاد نفسه؟ لاسيما وأن ميول الرئيس زلنسكي هي ميول أمريكية بامتياز. وهل يمكن اعتبار حلف الناتو، مجرد حصان طروادة؟ وكما صرح الرئيس إيمانويل ماكرون «فأوروبا توجد اليوم على حافة الهاوية. لقد فقدت مسار تاريخها «، مستنتجا أن سياسة الناتو العدوانية تجاه روسيا قد جلبت فعلا الحرب إلى أوروبا»، وهذا يتناقض مع ما أعلن عنه وحذر منه الجنرال دوغول عندما قال «أوروبا تمتد من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال».

ثالثا، التبعية الشديدة للغرب لروسيا: أبرزت أزمة أوكرانيا مدى هشاشة الاقتصاد الأوروبي والعالمي على السواء،باستثناء الصين، وتبعيته في عدة مواد أولية ومدى تفوق روسيا في إنتاج الغاز والبترول والنفط والحبوب والترسانة النووية. وعندما قرر الكرملين الأداء لإمداداته بالروبل بدا واضحا مدى قدرته على المس بالتفوق الغربي وبالمنظومة العالمية على السواء، حيث اتضح أن احتماء واصطفاف البلدان الأوروبية خلف أمريكا لا يكمن في الدفاع عن أوكرانيا وإنما إنقاذ وضمان بقاء العالم الغربي برمته .

رابعا، إبراز أهمية العوامل الجغرافية في بناء الإستراتيجية الجيوسياسية الهجومية بروسيا: توجد سهول أوروبا الغربية بين بحر الشمال، وبحر البلطيق إلى ألمانيا وبولونيا وجمهورية التشيك مما جعل حكام روسيا يحتاطون دائما من مخاطر الهجوم الخارجي وجعل الاستراتيجيين في الكرملين يتجهون إلى مراقبة ولوج هذه المناطق؛ لأن الأمر يهم ضمان سيادة أمنية حيث أثبت التاريخ مدى حدة الهجوم الذي يتعرض له البلد من لدن بولونيا والسويد وفرنسا، وأصبحت الإمبراطورية في بداية القرن العشرين مصدر أطماع خارجية بفعل وجودها من أكبر القوى مساحة وسكانا وموارد فلاحية وصناعية وشبكة ربط في سكك حديدية. ولعل هذه القدرات هي التي جعلت مجموعة من الدول الأوروبية التي كانت تحت مأوى المظلة الأمريكية تسارع إلى الاحتماء بحلف الناتو مباشرة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وهو الاتجاه الذي يتناقض مع إرادة روسيا التي تسعى دائما إلى المحافظة على مناطق نفوذها اتجاه جيرانها المباشرين . وهذا يعد من أهم الأسباب التاريخية لإندلاع أزمة أوكرانيا. ويرى كبار المنظرين في الجيو استراتيجية أن «من يحكم أوروبا الشرقية يحكم الأرض المركزية، ومن يحكم الأرض المركزية يحكم جزيرة العالم ومن يحكم جزيرة العالم يحكم العالم». فلذلك يعتبر الغرب أن تملك رقعات ترابية من لدن روسيا ضمن العمق الأوراسيوي يعد بمثابة تهديد جيواستراتيجي للتوازن الكوني؛ مما يجعل روسيا تعد عدوا شرسا للغرب ينبغي تطويقه ومحاصرته. لكن كيف يمكن الخروج من الأزمة ووضع نهاية للحرب ؟

توجد عدة سيناريوهات ممكنة، مادامت الأزمة قد أتت لتستجيب لأهداف إستراتيجية كبرى بعيدة الأمد ومتناقضة وليدة تركة تاريخية وجغرافية. غير أن المواطن العادي اكتشف من خلال النزاع الدائر أن روسيا ليست قزما اقتصاديا، كما قد يعتقد البعض وأن البلد يدار بشكل جيد، وهو ما عبر عنه الرئيس بوتين نفسه بقوله : « الشخص الذي لا يندم على زوال الاتحاد السوفيتي، الذي عرف كيف يجمع ٧٣ مجموعة عرقية حول نفس الحلم، ليس لديه قلب، لكن الشخص الذي يرغب في إعادة غزوه فهو ليس ذو عقل».

عنوان الكتاب: الحرب الأوكرانية: الجانب المخفي من الأوراق

تأليف: غبريال بانون

اللغة : الفرنسية

سنة الإصدار: 2022

دار النشر : سوشبريس، الدار البيضاء

عدد الصفحات :149 ص

* أكاديمي مغربي

إصدارات عالمية جديدة

اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

اضطرابات النوم

المؤلف: داميان ليجي **تاريخ النشر: 2022/6/15**

الناشر: سلسلة ماذا أعرف؟. فرنسا **عدد الصفحات: 128 صفحة**

يقدم البروفيسور داميان ليجي كتابا مهما عن اضطرابات النوم عند الناس وتأثيرها على حياتهم اليومية وسجلاتهم المرضية مثلا أكثر من 40% من الفرنسيين غير راضين عن نومهم. فهم يعانون من الأرق، انقطاع التنفس، الإفراط في النوم، المشي أثناء النوم ... والقائمة طويلة من الأمراض التي تزعج لياليا والتي ، في كثير من الأحيان ، لها تداعيات ضارة على الصحة.

في البداية يجب فهم كيفية عمل النوم بشكل أفضل. ما الفرق بين النوم «البطيء» والنوم «المتناقض»؟ ما هي عواقب البيئة والعمل والنظام الغذائي والإجهاد والتمارين البدنية على نومنا؟ كيف نتحكم في اضطرابات النوم بشكل أفضل؟

في هذا الموجز المعرفي والعملي ، يقدم البروفيسور داميان ليجي إرشادات ومعلومات وأدوات ونصائح عملية لنتعلم طريقة لجعل نومنا حليفًا لنا ليلة بعد ليلة ، ويومًا بعد يوم، وليس غريما لنا يقرض عمرنا يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة. وتجدر الاشارة إلى أن مؤلف الكتاب طبيب وباحث متخصص فهو الرئيس السابق للجمعية الفرنسية لأبحاث النوم والطب ومدير المعهد الوطني للنوم واليقظة ويشارك في إدارة فريق أبحاث عن (إجهاد اليقظة والنوم والصحة العامة) في جامعة باريس سيتي.

اكتساب عدة لغات

المؤلف: ميشيل كايل

الناشر: سلسلة ماذا أعرف؟. فرنسا

تاريخ النشر: 2022/7/6

عدد الصفحات: 128 صفحة

يعاني بعض الراغبين في تعلم اللغات أكثر من غيرهم في التحدث بعدة لغات. وعلى الجميع أن يبحث عن أسباب هذا الوضع الفريد. لكن ماذا يحدث في دماغ من يتحدث لغتين على الأقل؟ هل هناك فرق بين ثنائيي اللغة المتقدمين وثنائيي اللغة المتأخرين؟ هل ما زالت هناك لغة مهيمنة؟ هل يمكننا تحديد العمر الذي يكون فيه اكتساب لغة ثانية أمرًا سهلاً؟ ما هي آثار تعلم عدة لغات على دماغنا؟

من خلال تقديم مجموعة من الأبحاث المكرسة للآليات اللغوية المعرفية والعصبية المعرفية عند أي شخص يعبر بسهولة معينة وبعدة لغات ، تدعونا ميشيل كايل إلى فهم أفضل لمنابع تعلم اللغة. كما تلقي الضوء على مدى قدرة ممارسة لغتين على الأقل بانتظام على زيادة المرونة الإدراكية والمعرفية للشخص المواظب على اكتساب اللغات.

العلامة التجارية

المؤلف: بونوا هيلبرون **تاريخ النشر: 2022/7/13**

الناشر: سلسلة ماذا أعرف؟. فرنسا **عدد الصفحات: 128 صفحة**

العلامات التجارية هي أدوات لصناعة القيمة الاستراتيجية للشركات. لقد أصبحت أيضًا ضرورية في حياتنا اليومية: يصادف الجميع في المتوسط أكثر من 3000 علامة يوميًا ويعرف حوالي 5000 اسم علامة تجارية. بعيدًا عن اختزالها إلى اسم أو شعار ، تعد العلامات التجارية اليوم آلات أيديولوجية قوية تهدف إلى التأثير على طريقة تفكيرنا وحديثنا وأفعالنا. وكلما كانت المجتمعات أكثر ليبرالية زاد الاستئناس بالعلامات وتبني شروط استعمالها واستهلاكها.

يقدم بونوا هيلبرون بحثا معمقا عن وظائف ومصادر قيمة العلامات التجارية لجميع الفاعلين في الأسواق (المصنعين والموزعين والمستهلكين) ويقدم انعكاسًا عن الكيفية التي أضحت فيها هذه العلامات جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية للمجتمعات.

اللغة الإنجليزية (محمد الشيخ)

فلسفة في الشخص والهوية

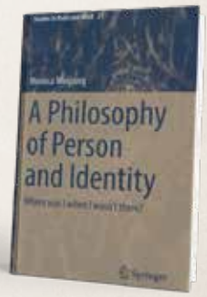

المؤلف: مونيكا مايجسين

دار النشر: سبرينجر

سنة النشر: 2022

من إشكالات الفلسفة المحيرة إشكال هوية الشخص: ترى من أكون أنا؟ وهل أنا هو أنا؟ وهل ما يلحقني من تغير عبر أطوار حياتي يجعلني أبقى أنا هو أنا؟ وهذا إشكال قديم جديد: قديم؛ يعود إلى طرح مسألة سفينة تيسيس التي كانت قد استُبدلت كل أجزائها جزأ جزأ؛ مما حدى بالفلاسفة الإغريق إلى طرح السؤال: ترى، هل بقيت السفينة هي هي أم أنها أضحت سفينة أخرى لا صلة لها بالسفينة الأصل؟ والمظلوم في تاريخ الفلسفة هو الإسهام العربي الإسلامي في طرح هذه الإشكال الذي لا زال يحتاج إلى من يُعرِّف به في الغرب؛ ومن ثمة الحاجة الملحة إلى كتابة فصل ناقص في تاريخ هذا الإشكال. وجديد؛ لأنه منذ جون لوك على الأقل تجدد النظر في هذا الإشكال. والكتاب الذي بين أيدينا يعيد تجديد طرح في هذه المسألة من خلال وضع السؤال: ما معنى «هوية الشخص»؟ وأجمل ما فيه انفتاحه على الثقافات العالمية والتجارب الشخصية والحالات المخصوصة في مقاربة هذا الإشكال.

فلسفة الطب العقلي القارية (الفلسفة ومصيدة الجنون واستفزازه)

المؤلفة: ألستير مورغان

دار النشر: بالغريف ماكميلان

سنة النشر: 2022

كان الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو قد فتح للفلاسفة، في مستهل عقد الستينات من القرن الماضي، بابا للقول في الجنون. والكتاب الذي بين أيدينا يتطرق إلى كيف سعت الفلسفة القارية ـ نسبة إلى القارة الأوربية، وتمييزا لها عن الفلسفة الأنجلوسكسونية ـ في القرن العشرين إلى فهم الجنون بحسبانه جنونا. وهو كتاب يقف عند السلوك المفارق للعقل إذ يسعى إلى فهم اللاعقل من غير أن يزيل عنه طابع الغرابة والغيرية الذي يكتنفه. هو كتاب جامع لأنه يحيط معرفة بمجمل التيارات الفكرية القارية التي تناولت الجنون: الفينومينولوجيا، النظرية النقدية، التحليل النفسي، ما بعد البنيوية، التيار المعادي للطب العقلي ... وقد اعتبر الجنون «شَرَكًا» للفلسفة بمعنيين: مصيدة واستفزاز. مصيدة؛ لأن الفلسفة الكلاسيكية برمتها دفعت بالجنون إلى اللواذ بالصمت، واستفزاز؛ لأن تناول الجنون دفع بالفلسفة إلى أن تجتهد في التفكير في ما يضاد مناطها.

النزعات الحالية في فلسفة العلم (رؤية استشعارية للمستقبل القريب)

المؤلف: تأليف جماعي تحت إشراف فينشيسلاو جونزاليس - دار النشر: سبيرنجر - سنة النشر: 2022

هذا كتاب يظهر الحاجة الآن قبل أي وقت مضى إلى فلسفة في العلم تكون ملتزمة بالمخاطر التي باتت تواجه بشرية اليوم المعولمة: الأوبئة، التصحر، الاحتباس الحراري، التلوث البيئي، التألية والمكننة، الذكاء الاصطناعي المنفلت من تحكم الإنسان ... ولن يخيب أمل القارئ في العثور على بغيته في هذا الكتاب الذي يعرض عليه مأدبة سخية في فلسفة العلم المعاصر، من حيث هي نظرة نقدية في فرضيات ومبادئ ونتائج العلم : أ ـ فلسفة الطب والتغير المناخي. ب ـ فلسفة الرياضيات والاحتمال التطبيقية. ج ـ مراجعة فكرة التقدم العلمي. د ـ الواقعية العلمية والبديل الوسيلي. وذلك كله في زمن عدم اليقين الذي نعيشه، والتقدم الذي حققه الذكاء الاصطناعي، ومستقبل الإنترنت.